القسم الأول

فصول من السيرة المحمدية[1]

(١) نشرت فصول هذا القسم بعنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة)، وقد وضع المؤلف عناوين فرعية لبعض هذه الفصول أثبتناها كما هى، وما جاء خلواً من العنوان الفرعى قد تخيرنا له من العناوين ما يناسب

أعمال النبى صلى الله عليه وسلم وآثاره الخالدة

نبغ فى العالم رجال خدموا فيه أممهم والإنسانية فى الدين والعلم والسياسة والصناعة وغيرها خدمات جليلة خلّدت ذكراهم بين الناس، ولكن ليس فيهم واحد يبلغ شأو محمد ﷺ فى جلالة ما أداه لقومه وللإنسانية من أعمال، وما خلفه لهما من آثار.

يقوم رجل واحد مجرداً من جميع وسائل الإغراء والتسويل، فى جماعة من أعصى جماعات البشر على الانقياد، وأبغضها للتآلف والاتحاد، فيؤلف منها أمة محكمة الأواصر، مبرمة الأواخىّ، فى بيئة كل ما فيها ينازعها البقاء: أرضها ، وسماؤها، وأهلها، وحالتها الاقتصادية، فتقاوم كل هذه العوامل المحللة، وتثبت على ما كانت عليه راسخة الوطائد، راسية القواعد، حتى تتصدع على صخرتها قوى تلك القوارع، ثم تنهض لتشغل مكان الزعامة من أمم العالم، وتبلغ هذه المنزلة فى جميع ضروب النشاط الاجتماعى والعلمى والعملى، ويبقى سلطانها ممتد الرواق عليها قرونًا متوالية، ولا تزال حتى بعد أدوار شتى من الضعف والذبول، تحاول أن تسترد مكانتها الأولى، بما أُودع فيها من ضروب المنازعات الأدبية والمادية، وما طُبعت عليه من عوامل التطور والتجدد؛ قلنا يقوم رجل واحد فيضع أساس مثل هذا العمل الجلل، يجب أن يعتبر أمة واحدة، وأن يعطَى أجل وصف يمكن أن يحمله إنسان فى هذا العالم، وأجل وصف هو رسول من قيّم الوجود للناس كافة.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس عشر سنة ١٣٦٣ هـ ، ص ١٣٠.

هذه الناحية هى الناحية المادية التى لايمكن نكرانها، ولا التقليل من قيمتها، حتى فى نظر أشد خصوم الإسلام تعنتا. أما الناحية الأدبية من عمل محمد، وهى جملة ما أتى به من تعاليم، وما أصّله من أصول، وما أحاطها به من حوافظ، وما متعها به من مناعات، فمما لا سبيل إلى بيان جلالته إلا فى فصول متوالية، ليمكن أن تختبر بجميع ضروب الآلات الدراسية، والتحليلات العلمية، مما سنقوم به إن شاء الله فى هذه المجلة.

* * *

ترك رسول الله ﷺ الأمة التى ألفها، على أكمل وأحكم ما تكون عليه أمة، من متانة الرُبُط، واستحكام العرى، وتوثق الصلات، وابتليت بأشد دواعى التفرق من ساعة وفاة النبى ﷺ، حين اختلف المهاجرون والأنصار فى تعيين خليفة له، فخرجت منها أتم مما دخلت وحدة، وأشد ائتلافا.

ذلك أنه لما انتشر خبر وفاة رسول الله اجتمع كبار الأنصار وهم أهل المدينة، وأخذوا يتشاورون فى تعيين أمير منهم يتولى أمور المسلمين، ويدبر شؤونهم، فأسرع إليهم المهاجرون، وهم أهل مكة تحت رئاسة أبى بكر وعمر، وتداولوا مع الأنصار الكلام فيما بينهم، وكانت رغبة المهاجرين متجهة إلى تعيين خليفة لرسول الله منهم، وخالفهم أهل المدينة، وأدلى كل من الفريقين بحججه على صواب مذهبه، ثم انتهى الأمر باقتناع الأنصار بحجة المهاجرين، وبايعوا بالخلافة أبا بكر.

هذه الحادثة لا يجوز أن تغفل دون أن تعطَى حقها من التأمل والتقدير. ذلك أنه كان بين أهل مكة وأهل المدينة منافسة يرجع تاريخها إلى عدة أجيال، وكانت بين الجماعات حروب تركت آثاراً عميقة فى النفوس؛ ثم جاء الإسلام وخذل أهل مكة دعوته؛ وجدُّوا فى إحباطها، فاضطر النبى أن يلجأ فى نصرتها إلى أهل المدينة، فلبوه مشمرين، وطلبوا إليه أن يهاجر إليهم مع أصحابه، ففعل وفعلوا، فقابلهم المدنيون مرحبين ، وأنزلوهم منزلة الكرامة، حتى

شاطروهم أموالهم،وبذلوا أنفسهم فى سبيل نصرة الإسلام، واضعين بين يدى رسول الله كل ما يملكون، ومازالوا يوالون الدعوة بالجهاد والبذل حتى تم لها الظهور، وكان رسول الله ﷺ يصرح فى كثير من الأحوال بأنه راض عن الأنصار، ومقدر لهم جلالة ما يعملون، وجاء ذكرهم فى القرآن أيضا مشفوعاً بثناء عظيم.

ولو تأملنا فى كل هذا حق التأمل، وقدرناه بمعايير الطبيعة البشرية، تجلى لنا أن خضوع المدنيين (فى مدينتهم) لحكومة يرأسها (مكى)، يدل على انقلاب ذريع طرأ على النفسية العربية، وتبدل كبير حدث فى عقليتها. ومتى أضفنا إلى ذلك أن هذا الانقلاب والتبدل حدثا فى عشر سنين، زاد تعجب المتأمل،وبخاصة لو كان ممن لهم إلمام بالعلوم النفسية والاجتماعية، وكاد أن يشك فى صحته، لولا أنه من الحقائق المقررة تاريخيا.

ولا يمكن أن يغيب عن ذاكرة الذين ألموا بتواريخ الانقلابات العالمية، ما كان بين المدن ذات السلطان المادى فى الأمة الواحدة من التنافس على التفرد بالزعامة؛ فقد نافست لاسيديمونيا عاصمة جمهورية لاكونيا، مدينة أثينا عاصمة قسم أتيكا، وكلاهما من بلاد اليونان، على السيطرة على الأمة اليونانية قاطبة، وحدثت بينهما حروب كثيرة انتهت بانتصار لاسيديمونيا، وكان ذلك سببا لضعف القسمين معا، ووقوعهما تحت السيطرة الرومانية.

ومسألة السيادة على الأمة العربية بين مكة والمدينة كانت جديرة بأن تكون مثلاً يضرب فى تاريخ المنافسات المسلحة، ولكنها انتهت على ما رأيت من الاتفاق، كما يحدث بين أخوين شقيقين من النزاع، وينتهى على أكمل مايكون من التفاهم .

هذه الحادثة وحدها تشعر بأن النبى ﷺ ترك الأمة الإسلامية وهى من قوة الترابط، وتوثق التماسك، بحيث لا توجد أمة فى ذلك العهد تشبهها فيه، إلا إذا كانت بعيدة العهد فى المدنية، وعلى جانب عظيم من الآداب الاجتماعية.

وأعجب من كل ما مر، وأدل على أن الوحدة الاجتماعية قد بلغت إلى أبعد شأو يمكن أن تصل إليه فى الأمة الإسلامية، أن المكيين تولوا الحكم على العرب كافة، وعلى الأنصار أيضاً فى مدينتهم، ولم يعودوا إلى مكة ليقيموا فيها حكومتهم، بجوار الحرم الذى يحج إليه المسلمون. وهذا يشعر بأن الإسلام قد أحدث فى عقول جماعته انقلاباً بطلت معه جميع الاعتبارات القومية، والشكليات التقليدية، فكما خفتت عندهم النعرة القبيلية، تلاشت فيهم كل العادات الوراثية، وانصرفوا إلى أمر واحد، وهو أن يقيموا الدين الجديد، وأن يقوموا علي صراطه من التجرد من جميع ما كانوا عليه، كأنهم صُهروا وصُبوا فى قالبه صبا جديداً.

وإلا فكيف تعلل كل هذه الانتقالات المادية والأدبية، وكل منها لا تستقر فى الأمم إلا بعد مرور أجيال عليها لتتمرس بها، وتنطبع بطابعها؟ فلا علم النفس ولا علم الاجتماع يستطيع أن يدرك لهذه الانقلابات الذريعة عللاً معقولة؛ خاصة بالنسبة لأمة أمية ، وصْفها المميز التمسك بعاداتها وتقاليدها الموروثة، وعدم التحول عنها قيد أنملة.

يقول معترض: ألم تر أن أكثر القبائل العربية ارتدت عن الإسلام بعد وفاة النبيﷺ، وما عادت إليه إلا والرماح مشرعة إلى صدورها، والسيوف مصلتة على أعناقها؟

أقول: لست عن هؤلاء أتكلم، ولكنى أتكلم عن الأمة التى رباها رسول الله تربية روحية وهو بين ظهرانيها، وجعلها نواة للأمة الإسلامية المستقبلة، أما رأيتها تغلبت على هؤلاء المرتدين، وقمعت القبائل التى خرجت على الإسلام وردتها إلى حوزته؟

هذه الأمة التى خلفت النبى ﷺ فى مبادئه، هى التى فتحت العالم للإسلام، ونشرت كلمته بين الأنام، وحافظت على أصوله ما استطاعت، حتى أقامت لهذا الدين دولة لم تَنْبَغ لأمة قبلها ولا بعدها إلى هذا اليوم.

فوجه الإعجاز فى قيام الأمة الإسلامية على هذا النحو من التماسك والترابط، حتى تعجز أقوى عوامل التفريق عن فصم عراها، هى فى حد ذاتها من الأمور التى تقضى بالحيرة فى تعليلها تعليلاً علمياً، لأن الترابط الاجتماعى يقتضى رابطة، وليست كل رابطة تصلح لكل جماعة فى كل زمن وفى كل الأحوال، فما كنه هذه الرابطة التى لمت شعث هذه الأمة التى طبعت على البداوة، تحت تأثير علل قاهرة طبيعة البيئة التى نشأت فيها، وضرورة انتقال جماعاتها من بقعة إلى أخرى، طلبا للكلأ الضرورى لماشيتها، حتى إن من لجأ إليها من بنى إسرائيل هربًا من الاضطهادات الدينية، اضطروا لأن ينقسموا إلى قبائل: كبنى قريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر. . .إلخ.

ولقد كان العرب يعيشون على الحالة القبلية حتى فى داخل المدن القليلة، التى كانوا اتخذوها مباءات لهم، كمكة ويثرب والطائف؛ فلم يكن لهذه المدن حاكم عام يحكم جميع من فيها، ولكن كانت كل قبيلة تسكنها مستقلة فى أموره، كأنها فى وسط الصحراء؛ حتى أن سكان يثرب (المدينة) كان بين القبيلتين اللتين تسكنانها حروب طاحنة، استمرت مستعرة قبل الإسلام عشرات من السنين.

* * *

قلنا إن الأنصار والمهاجرين بايعوا أبا بكر على خلافة النبى ﷺ، ومن العجيب العاجب أنها طريقة دستورية وُفقوا إليها بحكم التعاليم التى كانوا عليها، وهى لا تفترق عن طريقة التصويت العصرية، وفيها اعتراف ضمنى بسلطان الأمة، التى هى حرة فى إسناد حكومتها إلى من تشاء ومن طريق التوكيل.

ومن المحير للعقل أن الشرط الرئيسى لمسئولية الحاكم أمام الأمة، قد توافر فى هذه الحكومة بتقيده بأن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وهل هما شىء غير الأصول والقواعد الواردة فيهما، مما يضمن المساواة والإنصاف لجميع آحاد الأمة؟ وهل هذا شىء غير ما يسمى الآن بالدستور.

وقد أعلن أبى بكر على رءوس الأشهاد فى أول خطبة له بأنه لو حاد عن الكتاب والسنة فلا طاعة له على أحد، وقد استعملت الأمة حقها هذا على عهد الخليفة الثالث فعزلته وأقامت غيره، وهل هذا شيء غير الاعتراف بسلطان الأمة؟

فمن أعجب الأمور أن تتجلى الحكومة الدستورية كاملة فى أول هيئة إسلامية تتألف على أصول الكتاب والسنة، مما يشعر بأنهما يؤلفان قالباً واحداً لا يخرج منه إلا كل مثل أعلى؛ وبهذا أصبحت الأمة الإسلامية أول أمة دستورية ظهرت على سطح الأرض، فإن لم تكن استوفت جميع مظاهرها الشكلية، فإنها أتت بلباب الديموقراطية الصحيحة، وعملت بها وصارت لها القُدمة فيها.

وإنا لنرجو أن نوفق فى المقالات التالية إلى دراسة كنه الروابط، التى جعلت من الأمة الإسلامية وليداً متكمل الخلقة صالحاً للبقاء على أكمل وجه، وحاصلاً بالقوة على جميع بواعث التطور والارتقاء.

الترابط القوى بين المسلمين

شرعنا فى دراسة أعمال خاتم المرسلين محمد ﷺ، وأبنّا فى المقال السابق ما كان عليه المجتمع الذى خلفه من استحصاد الروابط واستحكام الأواخىّ، بحيث لم تكف أقوى المحللات التى تلقته وليدا أن تفصم له عروة، أو تنقض له وشيجة، وقد أكبرنا هذا الأمر، وعددناه من أعجب الظواهر الاجتماعية، ولم نغفل ما تحلى به، وظهر أثره فى أدوار حياته، من حوافظ كالئة، ومناعات وافية، وعوامل للتطور مواتية، مما سمح له أن يمثل فى تاريخ الإنسانية أكبر دور مثلته جماعة على الأرض.

واليوم نحاول أن نفهم سر هذا الترابط الاجتماعى الخارق للعادة، وبلوغه أقصى ما يتصور أن يصل إليه فى سنين تعد على الأصابع، وهو من المحاولات العلمية، كما بينا ذلك مفصلاً، ولا يتأتى لنا إدراك هذا السر إلا بالبحث فى أنواع العوامل التى تربط آحاد الجماعات بعضهم ببعض، والمقارنة بينهما وبين العوامل التى جمعت بين آحاد الأمة الإسلامية الأولى، لعلنا نجد فى ذلك ما يفيد علم الاجتماع، أو على القليل ما يفيد المسلمين المعاصرين، وهم أحق من سواهم بالاستفادة من هذه البحوث.

المعروف فى علم الاجتماع أن الإنسان من الكائنات التى لا تعيش إلا مجتمعة، وفى العالم الحيوانى من ذلك أمثلة كثيرة، كالنمل والنحل وغيرها، والعامل الوحيد الموجب للاجتماع هو تيسير العيش، وحفظ الذات من معاطب الانفراد. وقد قامت الجماعات الحيوانية والإنسانية على هذه الحال بالإلمام

---

(١) مجلة الأزهر، السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣هـ ص ١٧٧.

الإلهى. ونظراً لأن الإنسان قد وُهب عقلاً يتدبر به الأمور، وينظر به فى كل ما يحيط به، فإنه وسّع من روابط الاجتماع حتى جعلها تشمل المصالح المادية والمعنوية المشتركة، فقامت بإزاء الجماعات الفطرية الصغيرة التى تدعى بالقبائل، جماعات تدعى بالأمم أو الشعوب، تحميها روابط أعم من تيسير العيش وحفظ الذات، كوحدة اللغة، والجنس، مما لم تكن وصلت إليه الأمة العربية مع وحدة جنس قبائلها، ووحدة لهجاتها إلى حين البعثة المحمدية، حتى لم يقم فيها داعية إليه، ولأن طبيعة البيئة العربية تأباه.

فلما بعث محمد ﷺ أوجد فى عالم الروابط الاجتماعية تطوراً لم يعهد من قبل، ولم يتوقعه أحد. ذلك أنه أقام المجتمع الذى دعا إليه على الأصول الأدبية، والمبادىء العالية، لا على سبيل العيش، ولا على حفظ الذات. وهذا النحو فى تأليف الاجتماعات لا يعتبر تجديداً فحسب، ولكن يعتبر تطوراً جديداً بكرامة الإنسانية، ومناسباً لما يلازمها من الميول التى تمتاز بها عن الحيوانية، وتجعل للبشرية مكاناً خاصاً بين العوالم الطبيعية.

ذلك أن الرابطة الاجتماعية الساذجة التى لا تتعدى التعاون على طلب العيش، وحفظ الذات من العطب، إن كانت قد ولّدت لذويها عاطفة احترام حقوق الغير، والتعاون معهم على تحمل تكاليف الحياة، فذلك كان فى دائرة المجتمع الذى يعيشون فيه، وهم مضطرون إلى ذلك لينالوا مقابلاً له من العائشين معهم. ولكن هذه العاطفة لا تردهم عن أية جريمة يمكنهم ارتكابها لهضم حقوق أفراد الجماعات الأخرى، بل هم يعدون العدوان عليهم، والإساءة إليهم، من المفاخر التى يتمدحون بها، ويملأون بها أفواههم تفاخراً وتباهياً.

لا أنكر أن هذه الرابطة الساذجة قد تلطفت إلى حد كبير، بما حدث بين الأمم فى مدى العصور المتوالية من التبادل التجارى والثقافى والصناعى، وبما نجم من سهولة الانتقال من صقع إلى صقع؛ فصدرت نظم وقوانين تضمن حقوق الأجانب، وتحض على مساواتهم بالمواطنين فى المعاملات ما داموا فى

بلادهم. ولكن هذا التلطف لم يحدث إلا متأخراً. فعلى عهد الامبراطورية الرومانية كان الأجنبى لا يستطيع الوجود فى أملاك تلك الإمبراطورية إلا إذا كان تحت حماية أحد الرومانيين الأقحاح، وإلا تعرض هو وماله للضياع، بل كان الفقير لا يستطيع العيش إلا إذا كان تحت حماية أحد الوجهاء.

ولكن رابطة الاجتماع الإسلامى تجاوزت كل المجالات الأرضية، وحلقت فى أفق من السموّ لم يجعل بينها وبين أرقى الروابط الاجتماعية نسباً، وكان ذلك موافقاً لمنطق التطورات، لأن النبى ﷺ لم يرسل لينشئ مجتمعاً جديداً، ولكن ليدعو إلى إصلاح عالمى بعيد الأثر، يعيد به إلى الدين الحق سلطانه على القلوب والعقول، ويدعو الناس كافة إلى النظر، فيما يدينون به من عقائد زائغة:

(١) ليستعملوا عقولهم فى دحضها أو تقويمها.

(٢) وفيما يخضعون له من عادات وتقاليد بقيت من أبعد عهود الجاهلية، وتحت ستُر مموّهة من الأباطيل، ليرفعوا عن عواتقهم نيرها، ويلقوا عن ظهورهم آصارها.

(٣) وفى أمر من انتحلوا لأنفسهم حقوق الزعامات الروحية ليساووهم بالكافة.

(٤) وفى موقف الذين عادوا العلم، وأعدّوا الأذهان بذلك لقبول كل ما يلقونه إليها من الأضاليل، ليردوهم عن غيّهم ويعيدوا للعلم حق القول الفصل ليقوم بمهمته من التفرقة بين الحق والباطل.

(٥) وفى حال أولئك الذين اتخذوا الأمم خولاً، وقادوهم لقهر الجماعات البشرية، وسلب أموالها، وإفناء آحادها، ليسقطوهم ويفهموا الناس أنهم لم يخلقوا ليتناحروا، ولكن ليتآلفوا.

(٦) وفى مذهب أولئك الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وذهب كل فريق منهم إلى ناحية، واضعين تأويلاً ينابذ أهله به سائر المذاهب، ليضطروهم أن يفيقوا من غرورهم ويعلموا أن دين الله واحد، وأنه لا يخرج عما فطرت

النفوس عليه، وجُبلت على الأخذ به، لتماشيه مع العلم الضرورى الذى طبعت القلوب على قبوله، دون ملاحة ولا مماراة.

(٧) وفى ضلالة فرقوا بين الناس بسبب ألوان جلودهم، أو عجمة لغاتهم، أو بسبب تفاوتهم فى حطام الدنيا، فرتبوهم على درجات شتّى، وفرقوا بينهم على نسبة ذلك فى الحقوق الاجتماعية، ليرغموهم على أن ليس لأبيض على أسود، ولا لعربى على أعجمى، ولا لغنى على فقير فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح.

دخل من دخل فى الإسلام وقلبه مشبع بهذه المبادىء الإصلاحية لأكبر الشئون الحيوية، مما لم تحدّث أمة به نفسها فى جيل من أجيال البشر قبل الإسلام، فتآلف لهم من ذلك وجود معنوى عالى القدر، جليل الشأن، ورأى كل فرد منهم إلى جانبه رجالاً تعاهدوا على تحقيقه، ورفع علمه بين الخلق؛ فنشأت بين هؤلاء الآحاد رابطة سماوية المصدر، لا يجدون لأنفسهم حيالها وجوداً إلا بها، ولا حياة إلا فيها، ولا لذة إلا فى رفع علمها عالياً بين البشر.

إن الذين قبلوا هذا الدين عن اقتناع، تشبعت قلوبهم بهذه الأصول العليا. وأعدوا أنفسهم للأضطلاع بمهامّها، ولم يقبلوه لمجرد أن يعدوا أتباعها، والذين يُعدّون أنفسهم للاضطلاع بهذه المهام العالمية لايكون ترابطهم من النوع الذى يعرف عادة بين أفراد الجماعات، لتحصيل العيش وحفظ الذات فحسب، ولكن لإحداث إصلاح لم يخطر على بال البشر، وهى مهمة يقل معها أن تقول إنها توجد ترابطاً بين آحاد الآخذين بها، ولكن يجب أن يقال إنها توحد بينهم وحدة لا تقبل الانفصام، تجعلهم كأعضاء البدن الواحد لا غنى لبعضها عن البعض الآخر. فإذا كنا عجبنا من شدة تماسك أفراد المجتمع الإسلامى، ومن استعصائه على أقوى المحللات الاجتماعية، ومن سهولة تذليله للعقبات التى تعترضه. ومن تغلب الفئات القليلة منه على الجماعات الكثيفة، فإن هذا كله يصبح بعد هذا البيان سهل الفهم، معقول التعليل.

ذلك لأن الفرد الذى يبهر عقله جلال هذه المبادىء، ويستولى على قلبه جمال هذه الأصول، ينبعث لتحقيقها لا بقوة العقيدة الدينية وحدها، ولكن بقوة كل غرائزه الإنسانية أيضاً، فإن للإنسانية غرائز طبيعية تناسب مكانة الإنسان العقلية، ثاوية فى صميم فؤاده، فإن لم يكن جميع أفراد النوع البشرى سواء فيها لنقص فى تربيتهم، أو لتأخر فى درجات تطورهم، فإنها تظهر جلية فى نوعهم موزعة على أفراده. وقد اجتمعت فى الإسلام عوامل أدبية تثير هذه الغرائز، وتبلغ بها أقصى سلطانها، فالآخذون بهذا الدين عن اقتناع، كما حدث لرجال من أهل مكة وآخرين يزيدون عنهم عدداً من أهل المدينة، وصبروا على أشد ضروب الاضطهاد والإيذاء فى سبيله، وصهروا فى معالجة أدوار ضعفه وقوّته، اكتسبوا من قوة الإرادة، وشدة الشكيمة، وفضائل الصبر والثبات والتضحية درجات وصلت إلى حدودها البعيدة.

فإذا تآلف مجتمع من أمثال هؤلاء الرجال فإنهم لا يفكرون إلا فى غرض واحد، وهو نشر ما كلفوا بنشره لمصلحة الحق، ومصلحة المصدقين به، والمعرضين عنه أيضاً؛ وتصبح كل وجهتهم عالمية لا قومية، لا يفكرون قط فى الانحلال لأنهم يكونون قد فنوا فى المبادئ والأصول التى اقتنعوا بها، واعتقدوا أن العمل على نشرها، والموت فى سبيلها هو الحياة الصحيحة. فمثل هؤلاء لايصح أن نعجب من استعصاء جماعتهم على الانحلال وليدة، وقد سُلطت عليها محللات كثيرة، بل العجب أن لا ينجحوا فى بث دعوتهم؛ وتثبيت ملتهم. ولست بمبالغ أن قلت إن الفرد الواحد من مثل هذه الجماعة تزيد قيمته على ألوف من غيرها.

أتريد دليلاً على القول أبلغ مما فعله هذا المجتمع القليل العدد بعد وفاة محمد ﷺ؟ أرسل أبو بكر ألوفاً قليلة منه على قيصر القسطنطينية فاستولى منه على الشام، وأتم الفتح خليفته عمر، وفى الوقت نفسه أرسل الفاروق ألوفاً أخرى منه على كسرى، ففتح فارس برمتها، وبعث بطائفة أخرى على مصر فأدخلها فى طاعة الخلافة الإسلامية. وقد لاقت هذه الألوف القليلة من هذه الجماعة

مئات الألوف من خيرة الجنود الرومانية والفارسية فدحرتها، وفرقتها شذر مذر، فأضافت بذلك لدولتها فى مدى عشرين سنة ملكاً بعيد المدى، لم يكن يدور بخلد أحد أن إيجاده من الممكنات فى مثل تلك المدة، ولا للأمة العربية نفسها فى قرون عديدة.

أليس من مدهشات الأمور أن تتصدى الجماعة الإسلامية للدولتين اللتين كانتا تتنازعان السلطان على الأرض دون منازع لهما، فتقتطع من إحداهما قطرين عظيمين: الشام ومصر، وتثل عرش الأخرى وتضيفها إلى دولتها؟!

هذه حادثة يصعب تصورها لولا أنها من الحقائق التاريخية.

وأدخل من هذا العجب، أن تحكم هذه الجماعة هذه الممالك بعدل وإنسانية لم تكن تحلم به فى عصر حكوماتها الوطنية، حتى أن الفرس لما أدهشتهم هذه السيرة درسوا الديانة الإسلامية فعشقتها عقولهم وقلوبهم، ودخلوا فيها فكانوا خير عناصرها علماً وحكمة، وحفل تاريخهم فى عهدهم الإسلامى بالخدم الجليلة لهذا الدين، حتى عُدوا من أقوى أسباب ثباته واستمراره وبلوغه الغايات البعيدة التى بلغها فى العلم والحكمة والفنون الجميلة.

تمهيد لدراسة الأصول القرآنية[1]

سردنا فى مقالنا السابق العوامل التى أثرت فى المسلمين الأولين، فأوجدت بينهم رابطة قاومت أقوى المحللات للرُبُط الاجتماعية، وشفعنا ذلك بقولنا: إن أمر تلك الرابطة لم ينحصر فى أنها أخوّة دينية كالتى توجد بين الآخذين بدين واحد، ولكنها جاوزتها بما استمدته من القرآن من قوى أدبية هى غاية فى السموّ، أثرت فيما استكن فى نفسية متبعيه من الغرائز الشريفة التى ميزت النوع الإنسانى عن العالم الحيوانى، وأعدته لبلوغ غايات بعيدة من الوجود المناسب لسموّها، فتألفت من مجموع ذلك وحدة اجتماعية لا تقبل الانفصام والتحلل.

هذا ما قلناه فى المقال السابق، وفى هذا المقال نبين قيمة تلك القوى الأدبية المتكنة فى نفسية النوع الإنسانى، والأصول القرآنية التى أثارتها من مكامنها، وجعلت من جماعة المسلمين الأولين جماعة فاقت جميع الجماعات البشرية فى تلك الناحية، فتمكنت من توطيد مركزها بين الأمم التى سبقتها فى الوجود، واستطاعت أن تخضع بعضها لحكمها، وأن تترك لبعضها بقية من الملك فى حالة عجز عن مناوئتها، أو معاكستها فى تأدية مهمتها؛ والكلام فى بيان كل هذا يحتاج لشئ من التوسع، وما دام هذا التوسع لا محيد عنه لبيان قيمة المهمة التى عهد بها قيم الوجود إلى محمد ﷺ، فلا بد من القيام به، لا سيما من المعلومات البيكولوجية والاجتماعية ما يحتاج أن يعرف كل باحث فى هذه المسائل.

---

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣ هـ ، ص ٢٢٥.

الغرائز النفسية المميزة للفطرة الإنسانية عن الفطرة الحيوانية

لفطرة الإنسان غرائز تتجرد منها فطرة الحيوان، هى التى لاتنى فى دفعه إلى الارتقاء، وحفزه إلى التكمل فى العلم والعمل والمدنية؛ تحت قيادة قواه الإدراكية التى لا يمكن حدها بحد.

فالإنسان يشعر فى قرارة نفسه بجمال الفضيلة، وقبح الرذيلة؛ فيحب السخاء ويعظم الأسخياء؛ ويشعر بسمو العفة؛ ويكبر الأعفاء؛ ويدرك جلالة الحق، ويجل من يعتقد أنهم أهله؛ ويستقبح الاعتداء، ويكره المعتدين ويستنكر الغدر، ويشنأ الغادرين؛ ويمج الباطل، ويبغض من يتخيل أنهم أشياعه. . .إلخ.

فهذه الغرائز هى التى تدفعه الى التطور، وتأخذ بطبعه إلى الارتقاء، ولولاها، لبقى فى مستوى الجماعات الهامجة، ولم يخط خطوة فى سبيل التكمل.

يقول أصحاب الفلسفة المادية: إن الإنسان يحب الصفات الشريفة، لا لأنه مفطور على الشعور بها، ولكن حاجة الاجتماع تضطره إليها حرصاً على سلامة المجتمع؛ فإذا غدر فرد من مجتمع بفرد آخر، أو سبه أو ضربه أو سلبه أو قتله، اضطرت القوة الوازعة فى الجماعة إلى أن تعاقبه على ما أتى من العدوان على عشيره؛ وإلا أخذ كل فرد فى الدفاع عن نفسه، فانفرط عقد الجماعة، وتفرقوا أيدى سبَا، فلا يستطيعون الحياة. فلذلك ألُهم الأفراد أن يقبلوا الجزاء صاغرين، وأن يظلوا مجتمعين.

وبتوالى القرون على هذه الحالة انطبعت فى النفوس، واندمجت فى الضمائر، وظن أهلها أنها فطرة فطرت عليها إنسانيتهم، وما هى بفطرة كما رأيت، ولكنها حاجة اجتماعية توالت عليها الوراثات، حتى ظُن أنها طبيعة للنفس البشرية، وهى أجنبية عنها كما تبينت. بدليل أن آحاد جماعةلا يجدون حرجاً من التخلق بأضداد هذه الصفات فى معاملة آحاد الجماعات الأخرى؛ فإذا كانت فطرية فيهم لما كالوا للناس بكيلين، ولما تخلقوا بخلقين متضادين.

هذا رأى الفلسفة المادية فى الغرائز الشريفة للفطرة البشرية، ورداً عليهم

نقول: إذا لم تكن هذه الغرائز فطرية، لما حاول مصلحو الأمم تعميمها بين الناس كافة، ولما قبل الناس هذا التعميم وعدوه من متممات إنسانيتهم، ولما انعقد حول هذا التعميم رأى إجماعى من جميع فلاسفة العالم من لدن نشأة الفلسفة إلى اليوم.

فإن قالوا إن هذا التعميم تدفع إليه الحاجة لإيجاد تعارف عام بين الأمم، لتيسير المبادلات بين الجماعات، بعد أن وصلت إلى دور لا تستطيع فيه أن تعيش منعزلة فى بيئاتها المحددة.

قلنا إذا كانت الجماعات خلقت لترقى، وتضطر إلى تعميم الفضائل بين الناس، فمعنى ذلك أن الإنسان قد أُعد لبلوغ هذه الدرجة، ومُنح القدرة على تطوير أخلاقه، وتوسيع مدى قابليته إلى أبعد ما تصل إليه. وماذا ترجو بعد أن تسلم بهذا الإعداد، وهذه القدرة، أن تدحض من مواهبه النفسية؟

فلنجار المعترضين فى مضمارهم، ولنذهب إلى أقصى حد من التحليل لمواهب الفطرة الإنسانية، ونسألهم أليس فى الإنسان تمييز فطرى بين القبيح والحسن من الأشياء المادية، والأمور المعنوية؟

لا أظنهم يستطيعون إنكار ذلك، لأن العامل الأساسى فى ترقيه فى الأعمال، وتساميه فى الصفات، وفى تدرجه فى معارج الكمال، وتاريخه من أول وجوده إلى اليوم يشهد بذلك شهادة لا تقبل النقض: كائن قذف به إلى عالم المادة ليعيش بين كائناتها، فلم يقف عند حد حاجاته الجسدية، ولكنه تعداها بقدم ثابتة إلى وجود أدبى، مضحياً فى سبيله بكثير من شهواته وإفراطاته، ومقيداً نفسه بضروب شتى من تحديد رغباته، فهل كان يفعل ذلك لو لم يكن مدفوعاً إليه بقوى أدبية ثاوية فى سويداء قلبه، ومحفوزاً بمُثُل عليا كامنة فى صميم نفسه؟

وكيف يعقل أن يكون الباعث الحيوى الذى يدفع بالإنسان إلى توفير مُتَعه المادية، هو الذى يدفعه إلى ما يباينه من الخضوع للأديان، وفيها من ضروب

القيود والتضحيات ما ينافى التوسع فى المطالب والرغبات، وقد دل التاريخ أن أمماً برمتها أبيدت دفاعاً عن أديانها، ولا أذكر ملايين الأفراد الذين عفّوا عن الماديات مرضاة لعاطفتهم الدينية. فهل كان يمكن أن يكون ذلك لولا أن فى الإنسان غرائز من طبيعة غير مادية، تجعله يؤثرها على الحياة نفسها، وهل يعقل أن تكون هذه العاطفة التى تجلت فى تاريخ الإنسانية كلها، من مولدات الحاجة المادية التى يعلل بها الماديون جميع تطورات الإنسانية، وانتقالاتها المادية والأدبية إلى اليوم؟

القوى الأدبية المستكنة فى نفسية النوع الإنسانى:

تجهد الفلسفة المادية نفسها منذ زمان بعيد فى أن الإنسان والحيوان سواء فى جميع القوى النفسية، وإنما التفاوت بينهما فى الكم فحسب، فهى فى الإنسان أبعد مدى، وأوسع مجالاً، فى حدود حاجاتها المادية، فإن تعدته إلى مطالب روحية، فذلك يكون فيها من آثار الجهل؛ ومتى استنارت بمشكاة العلم أدركت أنها تقوم منه على وهم فأقلعت عنه، ووجدت وجهتها فى طريق التقدم المادى.

وهذا من أصحاب الفلسفة المادية يدل على قصر نظر شديد، وعدم إحاطة بأحوال الجماعات البشرية معيب، فإن الإنسان كما خلق مدنياً بالطبع، جبل على التدين كذلك. وإلا بماذا تفسر شيوع الدين فى الجماعات البشرية، إلى حد لم تصادف فى تاريخها من أقدم عهودها إلى اليوم، قبيلة أو أمة ليس لها دين تقدسه وتطمئن إليه. ويرى من يتتبع حياة هذه الجماعات أنه كان للدين عليها الفضل كله - حين لم يكن لديها علم تعول عليه - فى تهذيب طباعها، وترقية آدابها، وصرفها تدريجيًا عن الصفات الوحشية إلى صفات أقرب إلى العدل والرحمة والفضيلة. ولا أذهب بك بعيدًا فلأضرب لك مثلاً بما كانت عليه القبائل العربية قبل البعثة المحمدية ثم ما آلت إليه بعدها.

إنها كانت تقتل أولادها خشية الفقر، وتئد بناتها تحاميًا من العار، ولا ترى للضعفاء حقاً، فكان الرقيق لا يفترق عن البهيمة، وكانت المرأة لا ترتفع قيمة

عن أمتعة الدار، تعيش ذليلة محتقرة، وغير معترف لها بأدنى حق، وتورث بعد موت زوجها كما تورث الأنعام. وكان الحكم عندهم للسيف لا للقانون، وكان العلم لا يؤبه له، وكان التفاضل بينهم بالأنساب وبالاستكثار من حطام الدنيا، وكانت معيشتهم مبنية على التناهب، وكان التقتيل لديهم سنة شائعة، فلا تنقطع غارات بعضهم على بعض طرفة عين.

فلما جاءهم الإسلام لمَّ شعثهم، وألف بينهم، وهذب نفوسهم، وحول قواهم إلى وجهة صالحة لحياة طيبة، فلم يمض عليهم ردح من الزمن حتى بلغوا أوجاً من المدنية والعلم والحكمة لم يزل مضرب الأمثال إلى عهدنا هذا، ولو لم يجئهم الإسلام لكانوا بقوا على ما كانوا عليه إلى اليوم.

وقل مثل هذا فى أثر الديانة الإسرائيلية تحت قيادة موسى وخلفائه، وأثر الديانة النصرانية تحت زعامة عيسى وأتباعه، وجميع ما سبقهما من الديانات، حتى ما قبل أن يدون التاريخ. فلا ينكر أثر الأديان فى تطوير الجماعات إلا من حصر نظره فى دائرة ضيقة، ولم يدرس حالات الجماعات الإنسانية فى أدوارها الأولى.

وقد قال العلماء: الطبيعة لا تسرف، فإذا كان الدين كما يقول الماديون من مولدات الجهالة، لما كان عامًا إلى هذا الحد؛ ولو لم يكن له مستقرمن النفسية الإنسانية، لما دانت له النفوس هذه الدينونة المطلقة؛ ولو كان ثمرة الجهل لما كان له هذا الأثر الكبير فى الأمم.

نعم إن الجماعات المتدينة لا تخلو من غباوات وجهالات، ولكنها ليست من آثار الدين، ولكن من آثار الجاهلية التى لا يزالون عليها.

فإذا أجاد الباحث النظر، اتضح له أنه لولا الأديان لطال على الجماعات الإنسانية أمد جاهليتها حتى يجيئها العلم، ولما تميزت الرذائل عن الفضائل، كما لم تتميز عند ملحدى هذا العهد، فإنهم يقولون إن كل هذه المسميات أمور اعتبارية، لا تستند على شىء غير ضرورات الاجتماع، وحاجات النظام. فإذا

كان الأمر كذلك فلم لم تؤثر تلك الضرورات والحاجات فى الأمة العربية، وقد عاشت آلافاً من السنين على ما كانت عليه قبل زمن البعثة المحمدية؟

يقول معترض: وهل كانت الديانة الإسلامية إلا وليدة تلك الضرورات الاجتماعية؟

نقول: إذا كان الأمر كذلك، فلمَ يجئ الإصلاح الذى هو وليد الضرورة، على شكل دين، ولم يجئ على صورته الحقيقية؟

إذا قلتم: كان ذلك لأن الدين أعلق بالنفوس، وأفعل فى الألباب، من أى شكل آخر من أشكال الدعايات.

قلنا فكيف يكون للدين هذا السلطان على النفوس، إن لم يكن مستنداً إلى قوة أدبية فطرية فى الإنسان؟ وهذا هو الذى نريد أن ندلل عليه، ولا يمكن أن يجد الخصم مخلصًا من هذا الإلزام، ولو تذرع بجميع ضروب المحاولات الخطابية.

وبعد:

فهذه مقدمات لابد منها لبيان جلالة العمل الذى قام به النبى ﷺ، وسمو الأصول القرآنية، وانطباقها على الغرائز العليا للنفسية البشرية. وهو عمل روحانى جليل الشأن حدث على مرأى ومسمع من الناس أجمعين، لقوم كانوا أعصى الناس عليه، وفى بيئة لم تكن لتحدثه لمنافاتها لكل ما يمت بسبب إليه.

وسنمضى فى تفصيل ذلك فى المقالات الآتية، لأن هذا الموضوع الجلل مما لا تسعه مقالة ولا مقالتان؛ وإنما نلح فى التوسع فيه، لأنه المعجزة الخالدة لخاتم المرسلين من جهة، ولأنه يبين حقيقة الإسلام، ويكشف عن مهمته العالمية من جهة أخرى.

ولنا منه غرض لا محيد عنه مع هذا كله، وهو أن يكون نبراساً لكل آخذ بهذا الدين، يستطيع أن يستهدى به فى فهم مقاصد الكتاب الكريم، وإدراك

مراميه البعيدة، وبلوغ أقصى ما يرمى إليه من المثل العليا للأخلاق السامية، والآداب الكاملة، والمدنية الفاضلة.

فإنه مما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين أصبحوا يقتصرون على سماع آيات من القرآن فى المساجد والمآتم، وقد أنزل ليقرأوه ويتدبروا آياته، ويأخذوا أنفسهم ببيناته.

نعم إن من الناس من اتخذه ورداً يومياً، ولكنه يقرأه دون تدبر، ودون أن يستأنس فى تلاوته بما يقفه على معانيه. وهذا كله من أصول العلل التى قضت على المسلمين أن يتدبروه، ويجروا على عاداتهم دونه.

ولو كان الإسلام ديناً كالأديان، لما آلمتنا هذه الحال إلى هذا الحد، ولقلنا إن هذه سنة الناس الغالبة حيال أديانهم؛ ولكن للإسلام صفة مميزة ليست لغيره، وهو أنه شرع لإحداث إصلاح عام بين البشر، وكلف أهله بأن يكونوا مثلاً عليا لذلك الإصلاح، فكيف يعتذر المقصرون عن القيام بهذه المهمة، وقد أصبحوا هم أنفسهم حجة على دينهم؛ إذا لم يكفهم أن لايعملوا منه بما عهد إليهم، بل صدوا عن سبيله بما آثروه عليه من بدعهم وعاداتهم؟

على أن الذى أرجوه من وراء الاستمرار على التنقيب عن أسرار هذا الدين، وكشفها على رءوس الأشهاد، أن تتنبه فى المقصرين عاطفة الجمال المعنوى، فيثوبوا إلى رشدهم، ويقدروا قدر التبعة الملقاة على عواتقهم، فيهتدوا بهديه ويكونوا مثلاً عليا لغيرهم، كما كان أواليهم مثلاً عليا لمعاصريهم، فرفعوا للإسلام علماً فى كل بلد حلوه وفى كل جماعة وجدوا بين ظهرانيها، فانتشر الإسلام فى أمم لمحض إكبارها لسيرة أهله، مما لا يتأتى لأنشط دعوة فى العالم أن توجده، ولو دامت قروناً متوالية، فتخطّى الإسلام حدود بلاد العرب إلى أقصى الأصقاع فى سنين معدودة مما لم تحدثه دعوة فى الأرض.

دحض العقائد الوثنية(١)

نحن فى محاولتنا تفسير تأثير الأصول القرآنية فى النفسية الإنسانية إلى أقصى الحدود الممكنة، اضطررنا أن نعقد فصلاً فى بيان الغرائز النفسية المميزة للفطرة الإنسانية عن الفطرة الحيوانية، وفصلاً آخر فى التدليل على وجود قوى أدبية مستكنة فى نفسية النوع الإنسانى تميل بفطرتها إلى الحقائق أبلغ ميل، إذا قدمت إليها غير مغشاة بالأهواء المختلفة وقد وعدنا أن نبين جزئيات هذا الموضوع، لأننا نطمع من ورائه أن يكون له من النتائج العلمية بعض ما كان لها على نفوس أوائلنا، وفى ذلك من كشف خصوصيات هذا الدين ما يتفق وحاجة أهل هذا العصر من الوجهة العلمية المتماشية مع أسمى المدركات الفلسفية ، فنقول:

أول ما تصدى القرآن له من إصلاح الشخصية الإنسانية، تطهيرها من العقائد الوثنية، وهى أشد الأمور الاعتقادية استعصاء على المعالجة، لأنها وراثية من ناحية، ومن أنسب المدركات للشعوب بسبب ضعف ثقافتها العلمية من ناحية أخرى، ومما يدلك على شدة تمسك الشعوب بالوثنية ما قوبل به النبى ﷺ من العرب، حين دعاهم إلى ترك أوثانهم، وإفراد الله وحده بالألوهية، فقد حكى الكتاب الكريم عنهم أنهم قالوا:

«وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشئ عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشئ يراد. ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق»(٢).

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣هـ، ص ٢٧٣.

(٢) ص: ٣، ٤، ٥، ٦

وقالوا أيضا كما رواه عنهم الكتاب الكريم:

﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[1].

فأنت ترى أنهم استنكروا ذلك إلى حد أن اعتبروه متناهياً فى العجب، ووصفوا الداعى إليه بالشعوذة والاختلاق والجنون، وليس فوق هذا جمود على ما كانوا عليه، واستعصاء على كل ما عداه.

فإن وعيت هذا ورأيت أن النبى ﷺ قد أنجح فى إزالة هذه الوثنية المستحكمة، وأحل محلها عقيدة التوحيد على أكمل ما تكون عليه من التنزيه، ليس فى أفراد معدودين، ولكن فى أمة برمتها، حرت فى تعليل ذلك كله، لأنه عمل لم يسبق له شبيه فى تاريخ البشر؛ وربما تبادر إلى ذهنك أن بعض خصوم الإسلام عللوه بالإجبار وبالقوة، وفاتهم أن الإجبار لا يعقل إلا بواسطة أشياع يكون عددهم أكثر من عدد الخصوم، وعليه فلا يزال موجب الحيرة موجوداً، ولا يزال العقل يطالبنا بتعليل حصول النبى على هذه الكثرة المتغلبة فى أمة كانت من الرسوخ فى عقيدتها إلى الحد الذى ذكرنا.

ونحن توفيةً لما وعدنا به فى مقالنا السابق، نبين لك الأسلوب القرآنى فى التغلب على النفسية الإنسانية، من ناحية ما طبعت عليه من الخصائص الأدبية العليا، بقدر ما تصل إليه قدرتنا التحليلية، وما يبلغ إليه فهمنا، تجلية لهذا الأسلوب المعجز، فنقول:

أول ما دعا النبى ﷺ إلى الإسلام جعل دعوته سرية، ليحصل على العدد القليل ممن صفت نفوسهم من ذاك السواد الأعظم، واستعدوا لقبول دعوة من هذا النوع بغير تردد، ولا تخلو أمة من أمثالهم فى عهد من عهودها؛ فآمن به سراً بضع عشرات من الرجال والنساء. فلما بلغ ذلك قريشاً أخذت فى اضطهادهم، حتى اضطرت جماعة منهم للهجرة إلى بلاد الحبشة، وصبر الآخرون على الضر، ولم تبق لسرية الدعوة حكمة، فأمر الله رسوله أن يعلنها

(١) الصافات : ٣٦

بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وتولى الحق سبحانه وتعالى هذا الأمر، فأوحى إلى رسوله من الآيات ما لو تأمل فيه عليم بالنفس ومظان تأثرها، وبالخصائص الأدبية في الإنسان، ووسائل تنبيهها، وبطبائع البيئات المختلفة وعوامل تكييفها للشخصية الإنسانية، يدهش إذا تأمل فيها تحت ضوء الأصول البيكولوجية الحديثة من موافقتها، للحالة التي كان عليها العرب الأولون في تلك البيئة البعيدة عن العمران والمعرفة.

إن الإنسان في حالته الساذجة يكون أسير حاجاته المادية، فيلتاث إلى حد بعيد بالأخلاق الحيوانية، وينصرف عن مواهبه الأدبية انصرافاً كبيراً، إما لعدم وجدان الوقت للتأثر بها، أو لعدم إمكان العمل بها في وسط هذه العاصفة من المطالب الحيوية، فإذا دعوته ليتمع إليك، لم يستجب دعوتك، يأساً من إمكان تغيير ما هو عليه من السيرة التي لا مناص له من القيام عليها، واكتفاءً بما جمد عليه من وثنية ساذجة تناسب عقله المقطوع عن مدده العلمي.

فأمثال هؤلاء الأقوام لا ينبه شعورهم إلا ألوان من الزجر البالغ أقصى حدود الشدة، مع مزجه بشئ من أخبار الجماعات التي يعرفون نزراً من تاريخها، وبيان أنهم لمْ يهلكوا ويُعفَّ على آثارهم، إلا بسبب استعصائهم على رسلهم، وتكذيبهم ما أرسلوا به إليهم من ربهم، وتحقير ما هم عليه من الأباطيل، وإضافة شئ إليه من مظاهر قدرة الله وباهر حكمته في خلقه، وتذكيرهم بما سيلاقونه في حياتهم الآخرة من العذاب المهين، في عبارات أخَّاذة بالقلوب، جذابة للعقول، ولعل أجمع الآيات لهذه الوسائل البيانية كلها هي قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا

(١) المائدة: ٦٧

لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا
قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾[1]، إلى قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ
الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ
مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا
بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا
ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ
اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا
اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ
اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا
فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ

(١) فصلت: من ١ إلى ٥

إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١).

«وقال الذين كفروا (أى يقولون يوم ذلك يوم القيامة) ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والأنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين».

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٢)

وقد أصحب الحق سبحانه هذه الزواجر بالعلل، التى أوجبت على الكافرين أن يستحبوا العمى على الهدى، وهى:

(١) تقليدهم الأعمى لآبائهم الأولين. فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾.(٤)

---

(١) فصلت : من ١٣الى ٢٨.

(٢) فصلت : من ٢٨ الى ٣٣

(٣) البقرة : ١٧٠

(٤) الصافات : ٦٩, ٧٠.

(٢) عدم استخدامهم العقل فى التفرقة بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(١).

وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢).

(٣) عدم طلبهم الدليل فى أمور الدين، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٣)

وقال ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٤)....

(٤) أخذهم بما تهوى أنفسهم، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾(٧).

(٥) اتباعهم الظنون والأوهام، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾(٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (أى يكذبون)﴾(٩).

(٦) عدم تثبتهم مما يروى إليهم، وتصديقه دون تحقيق، قال تعالى:

---

(١) البقرة: ١٧١.
(٢) الفرقان: ٤٤
(٣) المؤمنون: ١١٧
(٤) البقرة: ١١١.
(٥) الروم: ٢٩
(٦) ص: ٢٦
(٧) محمد: ١٦
(٨) يونس: ٣٦.
(٩) الأنعام: ١١٦

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

فهذه الوصايا التى تعتبر فى حقيقتها (الدستور العلمى) نفسه الذى لم يولد فى أوروبا إلا فى القرن السابع عشر، أثّرت فى نفسية الجاهلين أكبر تأثير، لا سيما وقد جلاها الحق فى ألوان شتى من البيان، وضروب منوعة من الأمثال والأخبار، فحببت إليهم أن يخلعوا كل ما حملوه من الآصار الاعتقادية، والأوزار التقليدية، وأن يستسلموا إلى النبى ﷺ ليعلمهم مما يفيض الحق عليه من العلم المستند إلى الحقائق الوجودية.

فكان أول ما علمهم النبى ﷺ أن يؤمنوا بالله وحده ولا يتخذوا معه شركاء، وأن يجلوه عن التشبيه والتجسيد، وعن كل صفات المخلوقين، وأن يعترفوا بالعجز عن تصويره وتكييفه، وأن يفكروا في مخلوقاته، ولا يفكروا في ذاته، لأن العقل أعجز من أن يحوم حول هذه المدارك التى لم تبلغها الملائكة أنفسهم. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[4]، فأجابوه خاضعين

ولما كان أمر تنزيه الخالق من الخطورة بمكان رأينا أن نتوسع فى بيانه قليلا، لأنه من أعظم ما يمتاز به الإسلام، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وأن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم». وهذا كما لا يخفى تنزيه لخالق الكون ليس بعده مذهب، لم تصل إليه أرقى الفلسفات إلى عهد الإسلام، ولم تبلغه العقول

(١) إبراهيم: ٢٧.
(٢) الشورى: ١١
(٣) الأنعام: ١٠٣
(٤) طه: ١١٠.

بعده إلا بقرون كثيرة ؛ فنشوؤه فى جزيرة العرب فى ذلك العهد البعيد، يعتبر معجزة للنبى ﷺ .

وقد صدرت من المسلمين أقوال تدل على فهمهم هذا التنزيه المطلق على وجهه الأكمل، فقد عزى إلى أبى بكر أنه قال: «العجز عن درك الإدراك إدراك»، ومعناه أن تحققك من العجز عن الوصول إلى إدراك الخالق، هو فى الحقيقة إدراك لا جهل، أى علم بأنه لا يمكن إدراكه.

وأوجز الأصوليون الإسلاميون هذا الموضوع العالى بقولهم: «كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك».

هذا الموقف الفلسفى العالى لم يكن ثمرة تفكير من المسلمين الأولين، ولكن نزولاً منهم على حكم الكتاب والسنة النبوية، وهل بعد قوله ﷺ: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا»، وجه لمسلم فى تناول ذات الله بالبحث، وهل بعد الإنذار بالهلاك زجر؟

وبعد؛ فهل كنت تتوهم أن يبلغ هؤلاء الجاهليون الوثنيون من العرب إلى هذا الشأو البعيد من التنزيه الصحيح، الذى يعتبر أرقى ما يمكن أن تصل إليه العقلية الإنسانية، إن لم يكن فى غرائز البشرية ما يدفعهم إلى قبول الحق متى اتضح وضوحاً تاماً، وجُلى تجلية حكيمة،وأن فى طبيعة النفس الإنسانية مذخوراً أدبياً رفيعاً يرتاح للأخذ بأرفع التعاليم، وأعلاها قدراً؟

وهل كان يمكن أن ينقلب هؤلاء الجاهليون هذا المنقلب المدهش من مدارك همجية إلى أرقى المدارك الفلسفية، لو لم يكن القرآن قد بلغ الغاية القصوى من التأثير فى النفوس، ووصل إلى أبعد ما يدركه الفكر من الاستيلاءعلى العقول؟

إننا من هذا الأمر حيال آية من آيات الله الكبرى، يستطيع كل إنسان تحقيقها والتأكد منها إلى يوم القيامة، تشهد لمحمد ﷺ بالرسالة، ولكتابه بالسمو الذى لا يُبلغ مداه، ولا يمكن لغيره أن يتحداه.

تقييم الشخصية الإسلامية[1]

ذكرنا فى الفصل السابق أن أول ما تصدى له القرآن الكريم من إصلاح الشخصية الإنسانية، هو تطهيرها من العقائد الوثنية، وهذا فى نظر العقل والعلم من الحكمة بالمكان الأرفع، لأن الوثنية تجمع من عيوب العقلية ما لا تجمعه عقيدة أخرى. فهى لا تناقض المنطق والفطرة السليمة فحسب، ولكنها تعد الذهن لقبول كل الأوهام التى يمكن تصورهاً، لأنها باعتبارها وليدة الجهل والوهم، تفتح باب النفس على مصراعيه للخيالات والضلالات، فيكون الحائل المنيع دون هذا التيار من الخرافات هو سد هذا الباب سدا محكماً، وتطهير النفس من جميع ما تراكم عليها بسببها من أقذاء الأباطيل، ثم إيتاؤها بالحقائق السليمة من الشوائب وهو عين ما صنعه الإسلام، وكان أول ما لقن جماعته العقائد الصحيحة مع جميع حوافظها على أكمل ما يمكن أن تكون كما بينا ذلك فى فصلنا السابق.

ولكن الشخصية الإنسانية لا يتم إصلاحها بمجرد إصلاح عقيدتها الدينية، فإن لها تعلقات شتى بشئون الحياة الروحية والجثمانية، فإن لم تقوَّم من هذه الناحية، فتعتدل على أسلوب سَوىّ فى الاشتغال بها، فسدت وانحطت، وسلك صاحبها السبل الملتوية الملائمة لها، واندفع فى الحيوانية إلى مكان سحيق.

لذلك عنى الإسلام بتقويم تلك الشخصية تقويماً يحميها من الاندفاعات الطائشة، فى كل ضرب من ضروب المحاولات الحيوية، حتى لا تبتعد بصاحبها عن الغاية التى قُدرت للإنسانية.

(١) مجلة الأزهر ـ السنه الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣ هـ، ص ٣٢١

ولما كان الإنسان لا يتكلف أن يخضع للمقومات الأدبية، إلا إذا اعتقد أنه قد قُدر له سمو يجب أن يصل إليه، وأن له ميزة يجب أن يقوم بحقها، ليحصل على جميع لوازمها، كشف الإسلام له أمراً لم يُكشف لمن سبقه من العالمين، وهو أن الله خلق الإنسان ليكون خليفته على الأرض، يحيى مواتها، ويستخدم مواردها، ويذهب فى الإبداع بها والترقى فيها إلى أبعد الحدود، ويمثل فيها صفات الخالق من الرحمة والعدل والتعمير، وليوصلها إلى أعلى ما هى أهل له بالقوة،

فقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1].

فأى سمو يتخيله الإنسان على سطح هذه الأرض أكبر من أن يستودعه الخالق أمانة أكبرت السموات العلا، والأرض والجبال الشم أن تحملها، وخشيت تبعتها؟ لاشك عندنا فى أن هذه الأمانة هى أن يكون خليفة لله على الأرض. فأى حافز يحفزه على القيام بحق هذه المرتبة أقوى من علمه بهذا الشرف الذاتى؟

لا جرم أن هذا الأسلوب الإلهى فى رفع القوى المعنوية فى النفس الإنسانية، لا يعقل أن يعدله أسلوب آخر، مما نراه فى كتب التربية النفسية حتى فى هذا العصر، الذى عنى أهله برفع مستوى الإنسانية عما هو عليه، ليضطلع أفرادها بما تستدعيه منهم واجباتهم الاجتماعية والعمرانية.

الفرق بَيّن لكل ذى عقل وعينين، ألم تر أن أمة كانت فى غدها على أحط ما يمكن أن تكون عليه جماعة، من عقائد وثنية، وعادات وحشية، وشذوذات أدبية ومادية، تطورت فى سنين معدودة إلى أمة تدين بأرفع العقائد التنزيهية، وتلتف حول أسمى الأصول الاجتماعية، وتجعل روابطها الآداب العالية، والأصول السامية، وتحرى الحق والعدل والرحمة والمساواة، بدل الحاجات

(١) الأحزاب: ٧٢

المادية، والمطامح الهوائية؛ وتنال خلافة الله فى الأرض، فى كل ناحية من نواحى الكمالات الصورية والمعنوية، حتى صار يقصدها من سبقها فى الحضارة بألوف السنين، يلتمسون منها أن تتفضل عليهم بما فُتح عليها من أنوار العلم، وأصول الحكمة، وأسرار الطبيعة؟

هذا انتقال لم يعهد له شبيه فى تاريخ الخليقة، وليس له من سبب إلا هذا الأسلوب الإلهى فى تربية النفوس، وعلاج القلوب، وضبط الأهواء، وقهر سلطان الشهوات، وقمع ضراوة الحيوانية، ومحق الهمزات الشيطانية، وتوجيه الميول الشريفة المنزوية فى أحناء الصدور، وثنايا القلوب إلى أشرف المحاولات الأدبية، وأقوم النزعات الخلقية.

وقد ذكر الله فى كتابه الكريم أنه منح الإنسان هذه الخلافة، وحلاّه بجميع الخصائص التى تجعله جديرًا بها، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا (أي ما هو مستعد له من العلم والحكمة والإبداع) ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

فكان هذا الإفضاء للمسلمين بأمر هذه الخلافة، وما خُولوه من شرفها وجلالتها أكبر حافز لهم على تطلب ضروب الكمالات، وعلى العزوف عن صنوف النقائص والخساسات؛ ناهيك بمن يعتقدون أنهم من سمو الفطرة،

(١) البقرة: من ٣٠ إلى ٣٤

وعلو الجبلة، بحيث تسجد لهم الملائكة؛ أن هؤلاء لا يفكرون إلا فى بلوغ هذه المنزلة لأنفسهم ومجتمعهم، ولا يعُدون الذين يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ثقلاء متطفلين، ولكن هداة مرشدين، يشكرونهم على ما تبرعوا به من أوقاتهم فى سبيل تنبيههم إلى تدارك أنفسهم، قبل أن تَرِين آثامهم على قلوبهم فلا يعودون يرعوون.

هل بالغ الإسلام فى الإفضاء بهذا السر العظيم للإنسانية؟ لا والله، فقد أثبت العلم التجريبى الصحيح فى القرنين الأخيرين، أن القلب الإنسانى مستقر لشخصية ذات خصائص علوية، وأنها قابلة للتطور إلى غاية لا يتصورها العقل، بحيث لا تُعد شخصيته الظاهرة إذا قيست بها الأشياء لا يؤبه له، ما دام قد استوعبته الحاجات البدنية، والشهوات البهيمية.

وهذا العود من العلم الرسمى إلى الإشادة بالشخصية الباطنية للإنسان، يرجع الفضل فيه إلى علماء جريئين، توصلوا إلى تجلية هذه الشخصية الباطنية، بمحو الشخصية العادية بواسطة إيقاع الإنسان فى نوم صناعى، مع محافظته على خاصة التكلم؛ فتبين لهم أنه يرى ويسمع ويحس بغير الأعضاء الجثمانية المخصصة لذلك، وأن إدراكه لا يقف عند الحدود التى تنتهى إليها قدرة تلك الأعضاء فيرى ما يخطر ببال المحيطين به والبعيدين عنه، ويقرأ ما فى جيوبهم وحقائبهم من المخطوطات، وما فى باطن خزائنهم من المؤلفات، ويرسل إلى البعيدين عنهم من أصدقائهم، والمجربين أمثالهم، فيأتيهم فى مثل لمح البصر بما يعملونه داخل حجراتهم؛ فإذا سئلوا تليفونياً أجابوا بصدقه فيما أخبرهم به. لا تصده المسافات الشاسعة عن الانتقال إليها بروحه، ولاتحجب الأستار عنه ما يراد منه الإخبار به. فإذا أوقظ هذا النائم وسئل عما حدث له، أجاب بأنه لم يعلم عنه شيئاً. فإذا أُنيم مرة أخرى وسئل عما حدث فى نومته الأولى، أخبر عنه تفصيلاً ولو كان بين الدفعتين سنون كثيرة، مما دل المجربين على أن الشخصية الباطنة للإنسان هى شخصيته الحقيقية، وإنما حجبها عنه ما توسط بينهما من الجسيم.

فاستنتج العلماء الذين وقفوا على هذه المعلومات التجريبية، وقد بلغوا عددًا في نحو مئة سنة يقدَّر بالألوف الكثيرة، أن للإنسان روحاً مستقلة عن الجسد، بدليل ظهورها بهذا المظهر الرائع وهو نائم، وبأنها موطن الإدراك والعقل دون المخ، لأنها تأتي كل ماتأتيه وهو تحت تأثير النوم حيث عمل المخ، ولأن ما نظهر به يفوق قدرته بما لا سبيل إلى إنكاره.

واستنتجوا منه أيضا أن الروح مستقلة عن الجسد استقلالاً مطلقاً، بدليل أنها تنتقل روحيًا، وتأتي بالمعلومات من أقصى الأرض، فلو كانت الروح مجموعة وظائف حثمانه، أو هي دمه أو أعصابه كما يقولون، لما استطاعت أن تأتي بشيء خارج محيط تلك الأعضاء؛ واستقلال الروح يؤيد عقيدة بقائها بعد فساد جسدها وتحلله.

فكل هذه الثمرات العلمية التجريبية صدَّقت الدين أكمل تصديق، وأصبح لا مناص لكل ظهير له من أن يدرس هذه التجارب دراسة علمية، ويستند إليها في تدريس العقائد، وإلا بقي الشاك على شكه، وكثر عدد الشاكين يوماً بعد يوم، بالدعاية القوية التي يقوم بها الماديون، ويصادف المتدينون منهم أمرا إدًّا.

إن الذي دعانا لأن نستطرد لهذا كله، أن المقام اقتضاه، وأن الأمانة الإلهية التي ينوه بها الحق سبحانه وتعالى لا يستطاع إدخالها في عقول المعاصرين إلا على هذا الوجه، فإذا كان أوائلنا اكتفوا بما قاله عنها الشرع، فإن معاصرينا الذين أُشربوا تعاليم العلم العصري لا يستطيعون أن يحنوا الرءوس إجلالاً لهذا الأمر إلا إذا سنده العلم، العلم التجريبي على مقتضى دستوره القويم.

فتأمل في الحكمة الإسلامية، وبُعد مداها في تربية النفوس، وترقية القلوب وحمل أمة برمتها على القيام بحق خلافتها، والاضطلاع بأعبائها بين الأمم، حتى كانت المثل الحي على صحتها، وحتى جنت من ثمراتها ما لم تجن أمة من سمو المبادئ، وأصالة الأصول، وكرامة الوجود، وزعامة العالم أجمع في جميع مجالات النشاط العقلي والعلمي والفني في الأرض، بعد أن كانت

مضرب الأمثال فى الانحلال الاجتماعى والأدبى، وزادت على ذلك مساماة الجماعات البشرية فى كل شىء حتى من أشياء الحياة الأرضية.

نعم إن الكلام فى سمو الفطرة الإنسانية قديم، وإن الفلاسفة اليونانيين وفى مقدمتهم سقراط وأفلاطون، يُحفظ عنهم كلام جليل فى هذا الباب، ولكنهم عجزوا جميعاً، وعجز كل من جاء بعدهم إلى يومنا هذا، أن يؤلفوا عليه أمة تقوم على سمته، وتبلغ بالجرى على صراطه ما يجعله حقيقة للناس أجمعين.

نعم قالوا فى هذا السمو الشىء الكثير لا على أسلوب القرآن، ولا على أن يكوّن أمة برمتها، ولا ليكون برنامجاً اجتماعياً لدولة عالمية، كما فعل الإسلام. فالإسلام وحده هو الذى استطاع أن يجمع قلوب أمة برمتها على هذه الحقيقة العظمى، أقول العظمى لأنه لا يوجد أعظم منها فى تقويم حياة الإنسان، وإيصاله إلى ذروة الكمال الصورى والمعنوى.

إن الدين صرح على رءوس الأشهاد بأن الإنسان أفضل من الملائكة، وبزّ جميع الفلسفات قديمها وحديثها فى رفع الإنسانية إلى هذه المرتبة، هو الدين الذى تصدى لقيادتها إلى هذه الغاية، وقد بلغتها؛ والآن يهم الناس أجمع أن يقفوا على أسلوبه الذى استخدمه للوصول بهم إليها، دون أن يكون سلوكها إليها جانياً على حياتها المادية، كقوة عالمية انتدبت لإصلاح الجماعات البشرية، لتبلغها الغايات القصوى من المثل العليا للحياتين معاً.

آيات باهرة للإسلام [1]
فى تخليص العلم من الرجعية لتكميل الشخصية الإنسانية

لو يرمى الإسلام إلى إصلاح الإنسانية من ناحيتها الدينية فحسب، كما هو حال كثير من الأديان، لسهلت مهمته؛ ولكنه يعتبر الحياة الإنسانية من جهتها المادية والروحية كُلاً لا يتجزأ، وشُرع ليكون إصلاحاً عاماً لهاتين الجهتين معاً.

وليس يخفى على ذى بصيرة صعوبة تقويم الشخصية الإنسانية، وهى فى مزدحم الشئون الحيوية، ومضطرب الأمور التعاملية، بحيث تنزل منها على حكم المثل العليا التى تتطلبها الإنسانية الكاملة، وتستدعيها المدنية الفاضلة، مع المحافظة على كيان الاجتماع، وعلى العوامل التى تدفعه للتطور، وعدم المساس بالبواعث النفسية التى تستمد وجودها من غريزتى حفظ الذات واستدامة النوع، وغير ذلك من الدوافع التى لها جذور عميقة فى الحياة الحيوانية والنباتية اللتين يستعير منهما الإنسان جثمانه المادى ومعظم اتجاهاته الحيوية، باعتبار أنه واحد من آحاد الأسرة الأرضية.

ليس مَثل الإسلام كمثل سائر الأديان فى هذه الناحية، فإن هذه الأديان شرعت لأمم استكملت شرائط الاجتماع الظاهرة والخفية؛ ولكن الإسلام أرسل إلى قبائل لا عهد لها باجتماع عام، واستهدف إنشاء أمة عالمية تقوم على المبادئ والأصول، لا على محض حفظ الذات وتنازع البقاء، وهذا مما يجعل عمله أكثر كلفة، وأشد مشقة.

---

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣ هـ، ص ٣٧٧

وقد سبق لنا أن بينا خطورة هذا العمل وفذاذته فى تاريخ البشرية، ولسنا نود أن نردد ما قلناه فى مقالات سبقت عن وجوه الإعجاز فى القيام به، وتأديته إلى الغايات المرادة منه.

نريد الآن أن نبين الأصول التى وضعها الإسلام خاصة بتقويم الشخصية الإنسانية فى هذا المعترك الهائل بين المطالب الجسدية والشئون الروحية، وفى معمعان تنازع البقاء مع الجماعات الأرضية، ونشير إلى الحوافظ التى حاط الإسلام تلك الأصول بها، فنقول:

لما كانت الشخصية الإنسانية لا يقوّمها ولا يرقيها شىء غير العلم، وجَّه الإسلام عنايته إليه توجيهاً خاصاً، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وسجل على الذين لا يعلمون حكما لا يرضاه ذو إدراك لنفسه.

فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وشدَّد النبى ﷺ فى وجوب طلب العلم فقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، ولم يطالب أحداً بالسفر إلى أقصى الأرض لطلب شىء غير العلم فقال: «أطلب العلم ولو بالصين».

وشرَّف الإسلام على لسان رسوله العلمَ فقال: «أفضل العبادة العلم» وقال: «نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة»، وقال: «خذ الحكمة ولو من مشرك». وقال: كن عالمًا أو متعلمًا ولا تكن الثالثة فتهلك»، والثالثة هى أن يكون لا عالمًا ولا متعلمًا؛ فهل تظن أن تعليماً من التعاليم الإنسانية بلغ هذا المبلغ من التحضيض على طلب العلم؟

---

(١) طه: ١١٤

(٢) الزمر: ٩

(٣) الروم: ٥٩

ومراد الإسلام ورسول الإسلام من العلم المعارف المحققة؟ لا الظنون والأوهام الملفقة، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

المراد بالقول الثابت المؤيد بالحجة، والمستند إلى الدليل، فلا يجوز الإيمان بشيء إلا ببرهان:

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2].

فإذا سئلوا عن معتقداتهم يوم الحساب لم يتلعثموا فى الجواب، كما هو شأن المقلدين الذين لم ينظروا فيما يلقى إليهم نظر نقد وتمحيص. وليس فيما يرى الرائى بعد هذا مرمى فى وجوب تمحيص العلم وتجريده من الأوهام والأهواء.

ولما كان لا سبيل إلى ترقية الشخصية الإنسانية إلا بالعلم كما ذكرنا، فقد جعله الإسلام أساساً للدين كما رأيت، ثم حاطه من الحوافظ بما يضمن خلوصه من الأهواء والأوهام فى جميع أدواره.

ولما كان من أخص صفات المتدينين المحافظة والحرفية، وكان العلم لا ينمو ولا يتطور إلا فى جو من النظر الحر، والاستقلال عن جميع الاعتبارات الاعتقادية، فقد حاطه الإسلام بحوافظ تحميه شرى الجمود والرجعية، ومضى العلم فى الأمة الإسلامية حرًا طليقًا من جميع القيود، مما لم ير له مثيل فى أمة من أمم العالم، ويكاد لا يصدّق ذلك من لا إلمام له بتاريخ العلم فى الإسلام على التحو الذى سنورده.

أما المحافظة فهى من أخص صفات المتدينين، لأن صيانة الوحى من عبث الظنون، وتلاعب الأهواء، يستدعى ذلك، فهم يرثون مبدأ المحافظة كابراً عن كابر ويفخرون بها، ولكن العلم يصاب منها بكارثة لا يلبث معها أن يجمد، ويصبح رجعيا حيال التطورات التى يكون بلغها فى البيئات الحرة.

فإذا كنا نفخر بأننا الأمة الوحيدة التى حافظت على الوحى سليماً من كل دخيل بشرى، فلسنا نستطيع أن نفخر بأننا حافظنا على العلم الذى حذقه آباؤنا

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) البقرة: ١١١.

فى القرن الرابع من حياة الإسلام، لأنه تطور فى ألف سنة بعدها تطوراً يكاد لا يبقى بينه وبين العلم فى ذلك العهد شبهاً.

شُرع الإسلام فى الأمة التى ألفها وكانت مجردة من العلم بمعناه الحرفى، فحثها على النظر فى الكون قائلاً: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).

ثم قدح فى الدين لا تؤثر فيهم آيات الكون، ولا تبعثهم على التفكير فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٢).

وحض الناس على إيقاظ غريزة التأمل، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٣)، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾(٤) ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٥)، وأكثر من تكرار هذا التحضيض، ثم سرد على تاليه من عجائب المخلوقات النباتية والحيوانية والأجرام السماوية ما يصعب حصره.

ومما يجب أن يؤثر عن الإسلام مما لم يشاركه فيه دين آخر، أنه حصر الخشية الكاملة من الله فى العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(٦).

لعمرى هذه إشادة كبيرة بالعلم الكونى اختص به الإسلام؛ لأنه الدين

---

(١) يونس: ١٠١.
(٢) يوسف: ١٠٥.
(٣) البقرة: ٤٤، ٧٦.
(٤) الانعام: ٥٠.
(٥) الاعراف: ١٧١.
(٦) فاطر: ٢٧، ٢٨.

الأخير الذى ستمر به الدهور وهو قائم، حتى لا يقف أهله فى سبيله ويمنعوه من أن ينمو ويتطور؛ وكيف يمنعون من التطور عاملاً يحصل لأهله من الإيمان ما يفضلونه به سائر المؤمنين؟

لم يكتف الإسلام بهدا كله، فقرر أصولاً تمنع الجمود العقلى، وتحمى من التحجر الفكرى، منها أنه حرم على أهله التقليد لكائن من كان، لأن التقليد كما يكون فى حق يكون فى باطل، وطالب كل إنسان بإقامة الأدلة على ما يؤمن به من العقائد، حتى قرر الأصوليون بناءً على هذا أن إيمان المقلد غير جائز. وهذا أصل لا يوجد له نظير فيما بين أيدينا من الأديان الأخرى. والمقصود منه إزالة الحصانة العلمية عن كل رأى مهما كان مصدره، ووجوب مطالبة صاحبة بالدليل، وهو الشرط الأساسى فى كل تثبت.

وقد احترم أئمة المسلمين هذا الأصل بما لم يؤثر مثله عن أية أمة أخرى من الأمم التى بلغت شأواً بعيداً فى التحضر. فكان أبو حنيفة يقول: هذا رأى أبى حنيفة، وهوأحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

وكان مالك يقول: انظروا فى كل ما أقول، فما من أحد إلا ويؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه الروضة، يعنى النبى ﷺ، فيما هو وحى. أما فيما هو رأى فقد قبل النبى رأى غيره.

وقال جميع الأئمة مثل هذا، وهو معلوم فى الإسلام لايختلف فيه اثنان.

ومن تلك الأصول فتحه باب الاجتهاد فى الدين إلى يوم القيامة، وليس بعد هذا إكبار لشأن الحقيقة، واعتراف بكرامة العقول، واحترام لمبدأ تخالف الآراء .

ومنها، وهو أكبرها شأناً، تقرير الإسلام على لسان النبىﷺ أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها. أليس معنى هذا أن الناس فى كل نحو مائة سنة تتحول أحوالهم، وترقى عقولهم، وتتلطف أخلاقهم؛ أو يحدث التبدل فى عكس كل ذلك، وتتطلب الأحوال الجديدة نظرات جديدة فى الدين، تستدعيها الأحوال الطارئة؟ وإذا كان المسلم يجب عليه

أن يسيغ ذلك فى الدين، أفليس يسيغه فى العلم الكونى الذى هو مستمر التحول من مجهول إلى معلوم ، ومن غامض إلى واضح، كما يدل عليه تاريخه الطويل فى مدى ألوف السنين؟

ومن العجب العاجب أن العلم الذى اصطدم بالدين فى أوروبا أكثر من ألف سنة، فكانت بينهما منازعات انتهت بتأسيس محاكم دعوها محاكم التفتيش، كان من أثرها تضحية أكثر من ثلاثمائة ألف عالم فى سبعة قرون (من سنة ١٠٨٣ إلى سنة ١٨٢٠) لم يبل بمثل هذا العداء لدى المسلمين بفضل القرآن، فأقبل المسلمون على العلم كما أقبلوا على الدين، لأن الإسلام كما رأيت آخى بينهما إخاءً لا تنفصم له عروة، وكانوا كراماً متسامحين معه إلى حد أنهم قرورا فى أصولهم صرف الألفاظ التى تأتى مناقضة لمقرراته عن ظاهرها، لتتفق مدلولاتها معها، فقبلوا كل ما ثبت من تلك المقررات ثبوتًا قاطعًا ككروية الأرض وحركتها حول الشمس وغير ذلك. ولكنهم ما فعلوا ذلك استخفافاً بالدين، ولكن عملاً بتعاليمه؛ فإنه نص على أن أساس الإسلام ما يثبت من أحكام العقل ومقررات العلم، ولايخفى أن الألفاظ يعتريها من ناحية الفنون البلاغية المجاز والاستعارة، ،وحالات أخرى تجعل التأويل ضرورة لابد منه، فقد ورد فى الكتاب الكريم ما يوهم أن لله وجهاً وسمعاً وبصراً ومكاناً. . .إلخ. والتنزيه الذى قرره القرآن ينافى ذلك كله، فكانت الحاجة إلى التأويل لا محيد عنها. من هنا أصبح التأويل أصلاً من أصول فهم القرآن على حقيقته، فطبقوه على المسائل العقلية والعلمية مما يكون فى القرآن ما يناقضها فى الظاهر.

هذا التسامح الذى يعتبر آية لعظمة الإسلام، كان سببًا فى قبول المسلمين لجميع مقررات العلم، وكان ذلك لمصلحة تكميل شخصيتهم الإنسانية، وقد برهن تاريخهم أنهم وصلوا من كمالها إلى المكان الأرفع، كما سيتبين كل ذلك فى فصولنا التالية.

سبق الإسلام [1]

الإسلام سبق الزمان فقرر لأهله من الأصول ما لم يكونوا وصلوا إليه بتطورهم ومنها ما لم يصل إليه العالم كله إلا بعد قرون كثيرة

ذكرنا فى الفصل السابق أن الإسلام جعل للعلم المكان الأول فى سبيل محاولته إصلاح الشخصية الإنسانية.

ولكن لما كان العلم بطىء التطور، وخاصة بالنسبة للجماعات الأمية، وكان لا بد للجماعة الإسلامية أن تحيا حياة اجتماعية صحيحة، وأن تستفيد من كل ما يلازمها من تطورات مادية وأدبية، لأجل أن تصلح لتأدية المهمة العالمية التى ندبها الحق لها . .

ولما كانت هذه الحياة وتطوراتها تحتاج لآماد طويلة تمضى فى التعلم والاحتكاك بالأمم، آتاها الحق طفرة من طريق الوحى، بأمهات الأصول الأدبية التى تحتاج لها أمة نُدبت لإحداث انتقال بعيد الشأو فى المجتمع الإنسانى بأسره ، وسمى تلك الأصول بالحكمة، ودعاها للأخذ بها كما دعاها للأخذ بالعقائد، وبثها فى القرآن لتتلى بكرة وعشيا فى الصلوات الخمس والتعبد بالتلاوة، فتمتزج بكيان الأمة، وتصبح الأمة مطبوعة عليها. وقد تكررت فى الكتاب الكريم الإشارة إلى الحكمة ، وإكبار شأنها، تشويقاً للناس إلى الأخذ بها، فقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

---

(١) مجلة الأزهر المجلد الخامس عشر سنة ١٣٦٣ ص ٤٢٤.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

وفى آية أخرى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وفى الكتاب الإلهى مزيد من هذا فنكتفى بما أوردناه، موجهين نظر القارىء إلى أن الله جعل الحكمة تدليلاً على صحة العقائد، وتوسيعًا لمجال التفكير، وحماية للعقول إذا تشعبت أمامها السبل، وخفيت عنها معالم الحقائق. فهذه الحكمة ليست بفلسفة، ولكنها دستور لكل فلسفة ولكل علم ولكل دين، وهى التى حمت المسلمين من الخوض فى البحث عن أصل المادة وفى كيفية خلق السموات والأرض، وغير ذلك من البحوث الفجة التى غصت بها الفلسفة اليونانية، وأصدرت فيها آراء أشبه بأحاديث العجائز، وقد صدف المسلمون عن كل ذلك اتباعاً للحكمة القرآنية وهى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾(٣)، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾(٤).

معدين أنفسهم لقبول كل ما يأتيهم من العلم الثابت، الذى يسمح لهم بأن يقيموا الدليل على صحته.

ولسنا نستطيع هنا أن نلم بجميع أصول الحكمة المثبوتة فى الكتاب الكريم، فنكتفي بأصل أصولها ونعقب كلا منها بما جلب إلى المسلمين من خير، وما دفع عنهم من شر، وما أقامهم عليه من شرعة للتطور، بحيث وصلوا فى مدى زمن قصير دهش له العالم أجمع، من الاتساع فى السلطان، والتبسط فى المعارف والعدالة فى الحكم، والسمو فى الأخلاق، إلى ما لم يحدث مثله ولا قريب منه لأمة من أمم العالم. قال تعالى:

(١) ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾(٥).

---

(١) الجمعة : ٢.
(٢) البقرة : ١٥١.
(٣) الإسراء : ٣٦.
(٤) النجم : ٢٨.
(٥) النساء: ١٢٥.

أى ومن أحسن ديناً ممن أخلص نفسه لله، وطهرها من الأضاليل والأوهام، حتى صارت على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، أى خالية من جميع العقائد الوراثية، والتقاليد الجاهلية، متمتعة بكل خصائصها العقلية، خالصة من جميع التقاليد التى تقيد حريتها واستقلالها. وهذه الحالة هى الدين الحق كما قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

(٢) ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[2] أى يكذبون.

ومؤدى هذه الآية أن الناس لا يتبعون فيما يعتقدون إلا الظن، والظن تصور لا يستند إلى دليل، ويؤدى صاحبه بنظر قصير، أو بقياس فاسد، إلى وهم باطل، وهو لايفيد ما يفيده الحق الذى عليه مدار الإيمان الصحيح، المنتج لأعظم الآثار فى النفس، ولأكبر النتائج فى الخارج، بل الأخذ بالظن يوقع فى الضلال، وليس وراء الضلال، إلا سوء المنقلب.

(٣) ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[3].

يقول الحق سبحانه إن المتبوعين فى الحياة الدنيا يتبرأون من تابعيهم يوم القيامة، ويرى كلاهما العذاب الذى ينتظره وتنقطع بينهم العلاقات، وبذلك قضى الإسلام على التقليد إلا بدليل قاطع، وحجة ناهضة، وترك المجال مفتوحاً أمام الآخذين به للنظر المستقل، وللبحث الحر.

(٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[4].

بهذه الآية الكريمة أعلن الإسلام المساواة بين الناس كافة، لا فرق بين أبيض

(١) الروم : ٣٠.
(٢) الأنعام: ١١٦
(٣) البقرة: ١٦٦
(٤) الحجرات: ١٣

وأسود، ولا بين عربى وأعجمى، فلم يجعل للقوميات ولا للجنيات ولا للغات، دخلاً فى التفرقة بين الناس فى الحقوق الطبيعية. وهذا أول ما تقرر من نوعه بين البشر.

وقرر الإسلام بهذه الآية أيضاً وجوب التعارف بين الجماعات البشرية، لتقوم بين الأمم كافة زمالة فى الحياة، تؤديهم إلى التعاون الواجب وجوده بين جماعات كُتب عليها أن تبلغ غايات واحدة.

هذا الأصل يغير وجهة نظر الآخذ به، فلا يعتبر الشعوب خصوماً له يجب عليه إبادتهم، ولا مزاحمين ينبغى له أن يسد عليهم طريق الحياة، ويميل على الدوام ويعمل لإيجاد روح التعاون بينه وبينهم. وهذا ما فعله المسلمون الأولون؛ فقد فتحوا بلاد شعوب كثيرة، وامتزجوا بها وبادلوها المرافق، وأعانوها واستعانوا بها. ولم يؤثر عنهم أنهم استباحوا أموالها، أو استذلوا آحادها، فكان أثر ذلك أن دخل فى دينهم دون دعوة منظمة ولا إجبار، نحو مائة مليون إنسان فى قرن واحد، وهو ما لم يسمع به فى أى عهد من عهود البشر.

والمدهش أن دعوةً للمساواة والتعارف بين الشعوب من هذا النوع لم تسمع بين الناس قبل مجىء الإسلام ولا بعده حتى القرن التاسع عشر.

(٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[1].

أى يأمركم بارئكم بالعدل بين جميع الخلق، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2]. ومعناه لا يحملنكم بغضكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم؛ ثم أمر بالإحسان إليهم بدليل قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3].

والبر أقصى درجات الإحسان، من بر والده أى رفق به، وتحرى مما به.

---

(١) النحل: ٩٠

(٢) المائدة : ٨

(٣) الممتحنة : ٨

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[١].

وليس بعد هذه الدرجة من العدالة أوج ترجو أن تعرج إليه أمة، ولا يعقل أن تنال هذه المرتبة من العدالة إلا إذا بلغت الأمة أبعد شأو فى تقدير الحقوق الإنسانية.

(٧) ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

وفى آية: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

وفى آية أخرى غيرهما: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ (أى فى تأثيرها)، ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٤].

يتبين من هذه الآيات أن الإسلام لا يبيح العقاب إلا على قدر الاعتداء مع اتقاء الله فيه، فقد صرح بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٥].

وفى الآيه الثانية ترخيص لمقابلة الاعتداء بمثله، ولكنه نوه فيها بفضيلة العفو، فمن عفا قاصدا بعفوه الإصلاح فله أجر عظيم. وفى الآيه الثالثة زجر شديد عن الاعتداء.

(٨) ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٦].

ومن الاعتداء قتل الجرحى والمستسلمين، وخدم المحاربين، وإهانة المأسورين،

(١) النساء: ١٣٥.
(٢) البقرة: ١٩٤.
(٣) الشورى: ٤٠
(٤) فصلت: ٣٤
(٥) المائدة: ٨٧.
(٦) البقرة: ١٩٠.

وإحراق مزروعات المقاتلين وهدم منازلهم، والفتك بأبنائهم ونسائهم ومرضاهم وشيوخهم ورجال دينهم. وهذه كلها آداب حربية لم تصل إليها بعض الأمم إلا فى العهد الأخير.

(٩) ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾(١).

هذه الآيه تفتح باب السلام العالمى على مصراعيه، وتتلاءم والنزعة العصرية فى وضع أصول مقررة لإبطال الحرب، فإذا حدث هذا لا يجد الساعون إليه من الدول الإسلامية غير التأيد بأمر من دينهم، لو اطلع عليه من هم بسبيل إقرار السلام العالمى لدهشوا أن يكون بين الموروثات الدينية أمر من هذا النوع. ولا أدرى إلى أى حد يصل دهش الذين كانوا لا يزالون يعتقدون ما اتهم به الإسلام من أنه دين حرب لايهدأ لأهله بال إلا بشنها على الأمم دون حساب.

(١٠) ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾(٢).

أى ليست إرادة الله تساير أمانى قوم وأحلامهم، ولكنها تنفذ على الكافة، دون محاباة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(٣).

وهذا إيذان خطير من الحق سبحانه وتعالى، فإن أصحاب الأديان يتخيلون أن لهم دالة على الله فيما بينهم، يتجاوز معها عن صغيرات انحرافاتهم؛ فصرح للمسلمين بما لا يحتمل التأويل بأن الأمر ليس بأمانيهم ولا بأمانى أهل الكتاب من قبلهم، فإن العدل لابد بالغ حده فى معاملتهم.

(١١) ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(٤).

---

(١) الأنفال : ٦١.

(٢) النساء : ١٢٣.

(٣) سورة الزلزلة: ٧ ، ٨.

(٤) الأحزاب: ٦٢.

كان الفلاسفة قبل الإسلام وبعده بعدة قرون، يجهلون أن للاجتماع سنناً لايمكن تعديها وأن لكل أمة أجلاً لا يمكن تجاوزه، كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(١).

فالأمم عند أهل القرآن تولد وتشب وتهرم ثم تتلاشى، وهو ما نص عليه علم الاجتماع. ولهذه المعرفة أثر فى توجيه الجماعات وقيادتها، وتحرى أسباب نهوضها وشبيبتها، ولما كان الفرد لا يحب أن يهزم فيموت، فإذا انتابته أعراض مرضية خشى أن تفضى به إلى الموت، فاستثار كوامن قواه دفعاً لتلك الأعراض، واتبع وسائل البقاء ليحتفظ بوجوده أطول مدة مستطاعة، فكذلك الأمم متى ألمت بهذا الناموس كرهت أن تلم بها أعراض من أعراض الاجتماع خشية أن تفضى بها إلى المصير المحتوم للأمم، فأسرعت للتخلص منها بالوسائل الممكنة.

نكتفى فى هذا العدد بهذه الأصول ونتابع نشر بقيتها فى الأعداد المقبلة إن شاء الله.

(١) الأعراف: ٣٤.

الأصول القرآنية

تابع فصل الأصول القرآنية التي أقامت الدولة الإسلامية[1] ووضعت أساس الأمة العالمية

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2].

هذا الأصل كان له أثر كبير فى سرعة ترقى المسلمين، فإنه بإباحته لهم، بل بتحضيضهم على الاستماع لكل قول والأخذ بأحسنه، جعلهم معرضين لعوامل التطور المختلفة دون حائل من عقيدة أو تقليد أو وراثة.

ذلك أنهم لما اختلطوا بالأمم لنشر الدعوة التى كلفوا بها، وتبادلوا القول مع المدعين، فأنصتوا إلى كل ما وجه إليهم، لا إنصات الجامدين المتشددين، ولكن إنصات الباحثين المستطلعين، الذين أمروا أن يتلقفوا الحكمة أنَّى وجدت، عملاً بأمر كتابهم، وبوصاة رسولهم، فى قوله ﷺ: «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت»؛ فتبين لهم نقصهم فى كثير من الشئون العلمية والعملية، فاندفعوا لتداركه اندفاعاً لم يؤثر عن أمة من الأمم قبلهم، فاستعانوا عليها بالعارفين بها من غير ملتهم، وأحلوهم محل الكرامة لعلمهم وفضلهم، وأغدقوا عليهم من برّهم ورفدهم، ما حمل كل ذى علم أو صناعة أن يتقدم إليهم، وأن يخلص لهم، فراجت سوق العلوم والفنون، وارتقت فى

(١) مجلة الأزهر - المجلد الخامس عشر ١٩٦٣ ص ٤٧١.
(٢) الزمر: ١٧، ١٨.

بيئة هذا النشاط الثقافى الحر درجات المعارف المختلفة، بعد أن كان أهلها يوصمون بالزندقة، وتوصد فى وجوههم أبواب الارتزاق.

وكان الخلفاء يتلمسون أهل العلم فى الآفاق، ويستحضرونهم مكرمين وفادتهم، مغدقين، عليهم من الأموال ما لم يروا له مثيلاً فى عهد دولتهم، ولم يكف المسلمين أخذ ما وقفوا عليه حاضراً بين أيديهم، بل عمدوا إلى المكتبات الزاخرة بالمؤلفات، فاستخرجوا كل ما كان فيها من ذخائر العلوم والفلسفة لكبار المؤلفين، واتخذوا ترجمة لها من آحاد تلك الأمم، لنقلها إلى العربية. وقد قبل المسلمون كل ذلك مرتاحين إليه، لأن الغرض كان العلم النافع، وقد اتبعوا أحسنه كما حثهم عليه الكتاب؛ فكان منهم الأئمة الكبار فى جميع فروعه، وآلت إلى المسلمين الزعامة العلمية فى العلم كله قروناً متوالية، وقد اعترف الأوربيون أنهم نقلوا عنهم العلوم إلى بلادهم، فحدث عنها ماسموه بعهد البعث La Renaissance الذى كانت مدته القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت مادته ما لفت المسلمون أنظارهم إليه من كتب العلماء القدامى، وما قاموا بترجمته إلى العربية من معارفهم.

(١٣) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

كشف الإسلام لأهله بهذه الآية عن سر عظيم من أسرار البسكولوجيا العالية، فى عبارة تعتبر غاية فى التأثير على النفس، وهو أن للقلوب عمى تصاب به، لا يعتبر بجانبه عمى الأبصار شيئاً، لأنه يحجب عن الإنسان إكبر مايهم، وهو النور العلمى الذى، يقوّم به حياته الصحيحة. أما عمى الأبصار فيحجب عنه النور المادى الذى يريه الكائنات المحسوسة، وليس احتجابها عنه بشىء إلى جانب ما يحجبه عمى القلب نحو مائة وخمس وعشرين مرة، فى ألوان من التعبير هى أبلغ ما يُقصد به التأثير فى النفس الإنسانية.

(١) الحج: ٤٦.

وقد علل الكتاب إعراض الكافرين عن الدعوة إلى الحق، بمرض يعترى القلوب يمنعها عن التأثر به، فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(٢).

ومن أبلغ ألوان التعبير فى هذا الموطن نفيه القلوب عن الكافرين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٣).

ووصفه قلوبهم بالهواء، فقال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(٤).

ونفيه عن قلوبهم الفهم، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٥).

كل هذا التلوين البديع لفت المسلمين إلى قلوبهم، فعنوا بصحتها أشد من عنايتهم بصحة أجسادهم، وزادهم النبى ﷺ مضياً فى العناية، بما وصاهم به من حكمه العالية كقوله: «إن الله لاينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم». وقال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب».

هذه العناية بالقلب من ضروريات الأمم التى يُعدها الخالق لخلافته فى

(١) البقرة: ١٠.
(٢) التوبة: ١٢٤، ١٢٥.
(٣) ق: ٣٧.
(٤) ابراهيم: ٤٣.
(٥) الأعراف: ١٧٩.

الأرض، وامتداد سلطانها على الأمم والجماعات فيها فالأمم التى لا قلوب لآحادها بالمعنى المراد هنا، قد تعيش وتقوم لها مدنية، ولكنها تعيش لذاتها، وتكسب كراهة جيرانها، وتستجلب الأحداث على نفسها، بما ترتكبه من غشمرة وغطرسة على كل من يرتبط بها، ويكون أكبر تعويلها على الأسلحة فى استبقاء وجودها، ولا تكون أهلاً لبسط سلطانها الأدبى على جيرانها، لتستحق بذلك خلافة الله فى الأرض، أى زعامة الأمم فيها، وهو ما يعبر عنه باللسان السياسى Hegémonie كما كانت الحال بالنسبة لمصر والصين والهند وأثينا ومملكة فارس فى العالم القديم، لأن هذا السلطان الأدبى لا تكفى فيه القوة الحربية، ولا البسطة العلمية، فلابد من روح أدبية راقية، تؤثر فى العقول والقلوب معاً. فجاء الإسلام حاصلاً على هاتين البسطتين على أكمل الأحوال. فكان الذين يخشون بأس أصحابه من ناحية يتنسمون منه روحاً عالية تمثل لهم الرحمة والعدالة والسماحة من ناحية أخرى؛ فدانت لهم الجسوم والأرواح معاً، وهذا كل ما ينبغى أن ما تكون عليه الأمم العالمية، التى يبعث قيم الوجود بها فى الأرض حين يطغى سلطان المادة على العقول، وتدلهم غياهب الأهواء فى النفوس، وتتداعى أركان الفضيلة فى القلوب، فيصون الحق بها دعائم العمران البشرى أن تميد. وقد أدى الإسلام للعالم من هذه الناحية مهمة نالت الجماعات البشرية منها حصصاً بقدر ما تحتاج إليه، ولا يزال الإسلام قائمًا بمهمته العالمية ولم يمنعه ما أصاب أهله من فتور أن يؤثر بقوته الذاتية من وجوه غير مباشرة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[1].

أريد بعد هذا كله أن أقول إن العناية التى وجهها الإسلام إلى إصلاح القلوب هى التى أخذت بيد أهله الأولين إلى بلوغ الغايات التى بلغوا إليها، وستأخذ بيد أخلافهم إلى استرداد مكانتهم بين الجماعات البشرية.

---

(١) ص: ٨٨.

(١٤) ﴿ يُفْتَنُونَ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا ﴾(١)، أى وهم لايمتحنون؟

المعنى أتوهّم الناس أنه يكفيهم أن يقولوا آمنا، فيُعتبروا من شيعة الحق من قبل أن يمتحنوا، فيظهر أنهم صادقون؟ وقد صارحهم الحق بنوع هذا الامتحان، فقال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(٣)

وقد صرح الله تعالى بأن يبلو المؤمنين بالخير وبالشر أيضاً، فقال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٤).

أقام الإسلام أتباعه بهذا الأصل العظيم على الصراط الطبيعى للتطور، وهو الاصطراع بينهم وبين الحوادث على النحو الذى عليه الخلق أجمعون، لا على النحو الذى يتخيله أهل الأديان، من أن الله يحابيهم فيعفيهم من الجهاد الشاق الطويل للحوادث، ومن المراس العنيف المضنى للكوارث، فصرح الله لهم بأن سنته فى تربية خلقه فى هذا العالم الأرضى لا تتغير:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾(٥).

---

(١) العنكبوت : ٢.
(٢) آل عمران : ١٨٦.
(٣) البقرة : ١٥٥، ١٥٦.
(٤) الأنبياء : ٣٥.
(٥) النساء : ١٢٣.

ولذلك قرن الإيمان فى وصاياه بالعمل؛ وبهذا وقر فى نفوس المسلمين أن الإيمان بالحقائق الإلهية إنما هو عمل قلبى ثمرته إقامة صاحبه على الصراط الأقوم من الأخلاق والآداب، وأنه يبث فى روعه روح الإقدام على الأمور العظام، والصبر على الخطوب الجسام، والمضى قُدماً إلى الغايات الشريفة، لايلويه عنها ما يصادفه من العقبات؛ وأنه لا يعقبه من العمل المستمر، والدؤوب المعنت، ولا من كل ما يلابس هذه الجهود من الانخداع والإخفاق.

وقد صرح النبى ﷺ أن للإيمان بالحقائق الأهلية واجبات لا بد من أدائها، ومشقات لا محيص من معاناتها، فقال: «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» أى ثم الأفضل فالأفضل.

ولو كان الله معفياً أحداً من مكاره الحياة، لأعفى رسوله ﷺ، وقد رأيت من سيرته أنه كان لا ينعم بالحياة المادية، وكان وقته كله وقفاً على واجباته الرسولية، حتى روى أنه حدث ذات ليلة ما يوجب الذعر لأهل المدينة من أصوات وصيحات أزعجت النائمين، فظنها الناس غارة، ففزع كل من سمعها إلى سلاحه وحصانه وانطلقوا صوبها، فوجدوا رسول الله ﷺ على حصانه بغير سرج، وقد تبين مصدر الذعر وقفل راجعاً، فلما رآهم تبسم وقال: لن تراعوا لن تراعوا. فعجبوا من أنه كان أسبقهم إلى المخاطرة بنفسه وحده فى الليل الدامس.

وفيما نأتى به من الآيات الآتيه دلائل ناصعة على ما نقوله؛ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

(١) التوبة : ٣٨، ٣٩.

نزلت هاتان الآيتان وعدة آيات بعدهما حين دعا النبى ﷺ المؤمنين لقتال الرومانين، فظهر عليهم شيء من التثاقل، استهوالاً لمقاتلة دولة عظيمة تعد جيوشها بمئات الألوف، مسلحة أكمل تسليح. فنزلت هذه الآية تنذرهم بأنهم إن لم يقوموا بالمهمة العالمية التى ندبوا إليها عذبهم الله عذابا أليما، واستبدل بهم قوماً غيرهم للاضطلاع بهذه المهمة التى تقتضى أقصى ما تملكه النفس البشرية من التضحية. فخضع المسلمون لأمره، وألفوا جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً سار به النبى ﷺ حتى بلغ حدود الشام، فلم يحرك الرومانيون ساكناً، فأمر جنوده بالرجوع، وقد ابتلوا ابتلاءً شديداً، ومحصوا تمحيصاً بالغاً.

هذا الابتلاء فى معترك الأهوال، وصبر المسلمين الأولين على كل ما نالهم فيه من كوارث وكروب، واقتناعهم بأن الله لا يحابى أحداً لأى اعتبار كان، وأن مجرد الإيمان بالقلب لا يغنى عن العمل، وأن أولى الناس بالتضحية وبذل الوسع هم المؤمنون بأن ما عند الله باق وكل ما عداه فهو فان، كل هذا جعل من المسلمين الأولين أداة صالحة للقيام بالأعباء العالمية التى اختارتهم لها الإرادة الإلهية، فبلغوا فى سنين معدودة ما لم يبلغه سواهم فى قرون، وصاروا آية ناطقة على أن التعاليم التى كانت توحى إليهم، وتقيمهم على الصراط الذى قاموا عليه، كانت تعاليم إلهية رفعتهم من حضيض الجاهلية، إلى حالة أفادوا بها العالم إفادة لم يُتحها قيّم الوجود لأمة أخرى.

(١٥) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

هذا الأصل كشف للمسلمين عن سر عظيم من أسرار الاجتماع البشرى، وهو التضامن، فالأمم وقد خلقت لتعيش مجتمعة، يؤثر ما يصيب بعضها من قصور أو انحراف فى البعض الآخر، لأنهم فى الواقع يؤلفون جسماً واحدا. فيكون من الجهل والحماقة أن يعيش فرد فى مجتمع وهو غير مبال بما يصيبهم

(١) الأنفال: ٢٥

كأنه مستقل عنهم. فالإعواز الذى يصيب الطبقة الفقيرة مثلاً، والجهالة التى تقع فيها، وسوء الآداب التى تتردى فى حمأتها، كما يصيبها بالمتاعب ويجعل حياتها مرة، أو يدهورها إلى حالة همجية حيوانية، يصيب بقية طبقاتها أثر من تلك الحالة تقض مضاجعها، وتنغص عيشها، بل قد تأتى على سمعتها، أو تعدو على وحدتها.

بهذا الأصل أصبح كل مسلم فى العالم الإسلامى الأول يهتم بما يصيب مجتمعه من الانحراف بعض طبقاته، فأعمل فكره فى إصلاحه، وصارح به إخوانه ليعملوا على تداركه من وجوهه المشروعة، ومتى شاع أمره بينهم أصبح مسألة عامة يهتم بها المجتمع كله جسداً واحداً.

أما الذين يخيل إليهم أنهم يستطيعون أن يعيشوا ناعمين لاهين، وفى جسم مجتمعهم صدوع لم ترأب، وفى سيرتهم اعوجاج لم يعالج، فإنهم يكونون فى ضلال مبين.

هذا الأصل الكريم جعل من كل مسلم مراقباً على من تضمه وإياهم رابطة الاجتماع، إن رأى فيهم عوجاً سعى فى تعديله بكل ما أوتى من وسع. فمجتمع يكون هذا تكوينه تكون مناعته حيال الأمراض الاجتماعية من القوة بمكان. والمعروف علميا فى عهدنا هذا أن أوامر الحكومات لا تنفذ على الوجه المطلوب ما لم تجد الحكومة من الشعب معيناً عليها.

من الأصول القرآنية *

تابع فصل الأصول القرآنية التى أقامت الدولة الإسلامية

(١٦) ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾(١).

من الأوهام الشائعة بين أهل الأديان، أن للقرابات والاتصالات فائدة فى الحياة الآخرة، كما لها فى الحياة الدنيا؛ وتناسوا أن فائدتها فى هذه الحياة تقوم على جهالة الناس واستنامتهم إلى الأوهام الموروثة، ولا يوجد هذا المؤثر فى الحياة الآخرة فيستحيل الناس إلى أعمالهم إن خيراً فخير وأن شراً فشر.

وقد امتد الوهم بالناس إلى تخيل أن المقامات الروحية قد تورث كما تورث المقتنيات المادية، فيقام الابن مقام أبيه فى مهمته الدينية ولو كان غير أهل لها. وقد مُنى الشرق والغرب بهذه الغفلة قروناً طويلة قبل مجىء الإسلام، واستمر بعده إلى اليوم، إلا فى البيئات التى غمرتها أنوار العلم.

قد نشأ عن هذه العلة أن أسندت الأمور إلى غير أهلها، وتحولت عن وجهاتها الروحية إلى حيث تستغل جهالة الجاهلين، وأوهام السذج والمغفلين؛ فجاء الإسلام ماحقاً هذه الآفة الجاهلية، فقرر أن ليس للإنسان إلا ما قدمه من عمل، لا ما ورثه عن أبيه من لقب، وأن عمله هذا سوف يراه يوم الدين، ويجزى عليه الجزاء الذى يستحقه، وقد جاء النبى ﷺ فقوى فى النفوس أثر هذه الآية فقال لابنته فاطمة، وهى أحب الناس إليه: «اعملى يا فاطمة فإنى

---

* مجلة الأزهر، المجلد السادس عشر سنة ١٣٦٤ هـ، ص ٨

(١) النجم: ٣٩، ٤٠، ٤١

لا أغنى عنك من الله شيئاً». فإذا كان رسول الله نفسه لا يغنى عن ابنته شيئاً، فهل يعقل أن يغنى فى أمته غيره عن أحد شيئاً؟

وقد قرن الحق جل وعلا الإيمان بالعمل فى نحو ثلاثمائة آية من القرآن الكريم، وليس بعد هذا مذهب فى التحضيض على وجوب العمل، وعدم الاكتفاء من الدين أو من العلم بالكلام، وهو الداء الدوى الذى يصيب المتدينين عندما يخيل إليهم أن الله يسخر لهم قوى الكون لا لشىء سوى أنهم مؤمنون، وينسون أو يتناسون أن هذا الامتياز لم يعطه المرسلون أنفسهم، فقد خاضوا غمرات الأعمال، وابتُلوا أحياناً بالفشل بسبب أخطاء صدرت من أتباعهم.

هذه الآيات اختلطت معانيها العالية، بروح الأمة الإسلامية الأولى، فأكسبتها رجولة في سيرتها لم نر لها مثيلاً فى غيرها من الأمم، ظهرت آثارها بعد وفاه النبى ﷺ عند اختيار خليفة له فلم يسندوها لواحد من أهل قرابته، وقد كان منهم من يصلح لها، وأسندوها إلى أبى بكر ولم يروا فى ذلك بأساً؛ ولما حضرته الوفاة نصح لهم أبو بكر أن يسندوها إلى عمر، فأطاعوه ولم يؤانسوا فى ذلك مانعاً؛ ولما توفى عمر واجتمع أهل الشورى انتخبوا لها عثمان. حدث كل ذلك فى نحو ربع قرن ولم يضطرب له حبل الأمور، ولا انشقت منه عصا الجماعة؛ ثم أفضت الإمامة إلى على بن أبى طالب فكان رابع الأئمة الراشدين، رضى الله عنهم أجمعين.

(١٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١).

أى اصبروا على البأساء والضراء، وماينالكم من عنت الحياة، وتقلبات الحوادث، ولا تتثبطوا عن متابعة الثبات مهما التوت عليكم الأمور، وتكادتكم النوازل، وصابروا أعداءكم، أى غالبوهم فى الصبر، وباروهم فيه، فإن الله مع الصابرين.

(١) آل عمران : ٢٠٠

كررت فضيلة الصبر فى الكتاب نحو تسعين مرة فى ضروب عدة من الألوان البيانية، وفى مناسبات شتى من المآزم الاجتماعية، والمواقف الحيوية، فقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(١).

أى إن ذلك مما عزمه الله، أى قطعه وأوجبه عليك من الأمور. وقال تعالى آمراً رسوله بالصبر: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢).

فى هذا إيذان بأن الصبر من أركان الدعوة إلى الإصلاح، وأنه شرط فى نجاح الأعمال بحيث لا تقوم دونه. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾(٣).

أمر الله المؤمنين وقد أحيط بهم وجدَّ بهم الجد، وثارت عليهم أعاصير الحوادث، بأن يستعينوا بالصبر والصلاة؛ فأما الصبر وهو الثبات، فهو مظهر الإرادة التى لا تتزعزع، والإرادة فى ذاتها قوة معنوية ذات أثر فعال فى إنجاح المطالب. بل قال الذين يبحثون فى أسرار النفس البشرية أن للإرادة إشعاعاً يؤثر تأثير سائر القوى خارج محيط الشخص المريد فيحقق له ما يرمى إليه؛ والصلاة اتصال بقيوم الوجود واستمداد منه ما يعينه من القوى فى تذليل العقبات. فهذه الآية من أرفع ما يوصى به الموصون من وسائل النجاح فى الأمور المشروعة. والمسلمون بما نجحوا فيه من مشروعاتهم الكبيرة، على قلة عددهم، أدل دليل على ما لهذا الأسلوب الإلهى من التأثير فى العالم المادى. وقد قال كبار القادة ممن مارسوا الحروب الطاحنة: إن الشجاعة صبر ساعة، فانظر إلى أى حد يبلغ تأثير الصبر، وإلى أى مدى يعتد به الذين يغالبون الأحداث والعوائق؟

---

(١) لقمان : ١٧.

(٢) الأحقاف : ٣٥.

(٣) البقرة : ٤٥.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(١).

أى إن الذين قالوا ربنا الله، القادر الذى لا حد لقدرته، الآمر بكل خير، والناهى عن كل شر؛ ثم استقاموا على الطريقة التى رسمها فى كتابه، تتنزل عليهم الملائكة، وهى تلك الكائنات العلوية التى تتولى الصالحين بالهداية الربانية، وتثبت فى قلوبهم روح الصبر على المكاره، والثبات فى مواطن الشدائد، وتنزع من قلوبهم الخوف واليأس من العناية الالهية، وتبشرهم بما ينتظرهم فى حياتهم الأخروية من مكانات الرفعة، ومقامات الكرامة.

إن هذه الآية أثرت فى قلوب المسلمين الأولين من ناحية الاستقامة على الطريق التى رسمها الكتاب الكريم أبلغ تأثير، فحملتهم على تحرى محابِّ الله، ومكارهه لا تحرى المأمور بالخير فحسب، بل تحرى من يتلمسون الاتصال بالملأ الأعلى الذى وعُدوا به، وهو مطلب كل نفس بشرية، تشعر بأنها اضطلعت بأعباء مهمة إصلاحية، ودُفع بها فى مزدحم الشؤن العالمية. فقد كانت الجماعة من جماعاتهم إذا أصيبت بفشل عارض، تحرى قادتها ماعسى إن يكونوا قد أهملوه من الوصايا الإلهية أو التعاليم النبوية، فاستدركوه. إلى هذا الحد وصل بهم العمل بأوامر الله وتجنب نواهيه. فلا غرو أن تتنزل عليهم روح ربانية تمدهم بالشجاعة والتضحية، وتمهد لهم العقبات المستعصية، وتهيىء لهم أسباب الغلب والنجاح.

(١٩) ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٢).

أى ولايحملنكم بغضكم لقوم بسبب أن صدوكم عن الطواف بالمسجد الحرام

(١) فصلت : ٣٠.

(٢) المائدة : ٢.

أن تعتدوا عليهم ، وتتجاوزوا حدود العدل فيهم، ولا يشدن بعضكم أزر بعض على ارتكاب الآثام، ولكن على الإحسان إلى الناس، وعلى خشية الله بالوقوف عند حدوده، فإن الله عقابه شديد العقاب فاحذروه.

هذه الآية مثال من المُثُل العليا للأخلاق الإسلامية الماثلة فى الكتاب الكريم، فإن قيّم الوجود الذى أراد أن يجعل الأمة الإسلامية أمة عالمية، لم يدعها تجرى فى علاقاتها بالأفراد والجماعات على السنن البشرية التى تأخذ بها الأمم، ومنها النكاية بأعدائها، والنيل منهم، شفاء لصدرها مما جنوه عليها من تعطيل مناسكها، وتأجيل شعائرها، وما سبق ذلك من الإغارات المتوالية عليها، وتأليب الجماعات ضدها، وإسرافها فى اضطهاد ضعفائها. وقد جرت الشعوب أن تشدد النكير على أعدائها من هذا القبيل نكاية بهم، ولكن الخالق جل وعز الذى يريد أن يجعل من الأمة الإسلامية أمة عالمية، قضى أن لا تجرى على هذه السنة من العادات الشائعة بين الشعوب، فوضعت لذلك حدا من السمو الخلقى هو غاية ما يمكن بلوغه متى وصلت الإنسانية إلى صميم اللباب من العدالة الصحيحة.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

هذا إيعاز من الله تعالى للذين يدخرون الأموال ولا ينفقونها فى سبيل الله، بعذاب أليم. وسبيل الله هو الطريق المؤدى إلى كل صلاح وإصلاح للأفراد وللجماعات. ولما كان أقوى ركن فى الاجتماع هو الحاجات المعاشية والاجتماعية، وكانت توفية تلك الحاجات قائمة على المال، كان المسئولون المباشرون عن هذا الركن هم المتعاملين بالدرهم والدينار. ولما كان المال يجتذب المال بما يؤتيه صاحبه من الوسائل لتصيده من هنا وهناك، كان العهدة على الذين يجمعونه تحت أيديهم ولاينفقونه فى سبيل إقامة بنية الاجتماع يستحقون عند الله أشد العذاب.

---

(١) التوبة : ٣٤.

ولما كان أخذ هذه الآية على ظاهرها يؤدى إلى تحريم ادخار المال، وحرمان المجتمع من طبقة الأغنياء، وهى طبقة لا بد من وجودها لإقامة المشرورعات العظيمة، وتحلية المجتمع بالمؤسسات الاقتصادية التى يشتغل فيها ملايين العمال من ذوى المهن الضرورية للاجتماع، بادر النبى ﷺ إلى شرح هذه الآية بقوله: «ما أديت زكاته فليس بكنز»، وعليه فليس ما يمنع فى الإسلام أن يكون بين أهله أمثال روكفلر وكارنجى واليارون هيرش وفورد ممن تعد رءوس أموالهم بمئات الملايين من الجنيهات، على شرط أن يؤدوا ما على رءوس الأموال هذه من زكاة. وقد قدرها الفقهاء بجنيهين ونصف فى كل مائة جنيه. فيكون ما يجب أن تدفعه الأمة المصرية إذا قدرت ثروتها بألفى مليون جنيه الآن، بخمسين مليون جنيه. وهذا القدر تنفقه الدولة فى الوجوه التى قررها الشارع لمصلحة المجتمع.

هذا الركن معدود من الأركان الخمسة للإسلام لمكانه الرفيع من بنية الاجتماع وقد تبين بعد ما دارت على الأمم الأدوار، أن نظام الجماعة يتوقف على نظامها الاقتصادى، وخاصة فيما يتصل بالطبقة المحرومة من المال. وقد انتهينا إلى القرن العشرين ولا نزال نرى أن النظام الاقتصادى هو الشغل الشاغل للأمم المتمدنة، ومن العجيب أن الإسلام حل هذا الإشكال بتقرير الزكاة حلاً لا يدع سبيلاً للمذاهب الاقتصادية المتطرفة للطعن فيه. فإنها بدلاً من جعل الثروات ملكاً شائعاً للآحاد، وهدم كل ما اتفق العالم على الاعتداد به من الوراثة والملكية الخاصة، فرضت على مجموع مال الأمة ضريبة سنوية واجبة الأداء قدرت باثنين ونصف فى المئة، وهو حل لا نشك فى أن العالم كله سيضطر للأخذ به، تفادياً من الانقلابات الذريعة التى يقتضيها الأخذ بغيرها من المذاهب الاقتصادية.

من الأصول القرآنية [1]

تابع فصل الأصول القرآنية التي أقامت الدولة الإسلامية

(٢٠) ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

إن معقد حياة الشعوب روابطها الاجتماعية، وهى توجد عادة طبيعية متى كان لا حياة للجماعة دونها، وقد وُجدت حتى عند الحيوانات العجم التى تعيش مجتمعة؛ ولكن رابطة الجماعة الإسلامية لم تكن من نوع الروابط الطبيعية، فهى لم توجدها الحاجة للحياة الحيوانية، وأوجدها النزوع لحياة أرقى يكون الترابط فيها غير قائم على الحاجات الجسدانية ولكن على الحقائق العلوية، والأصول الأولية؛ وهى حالة يؤدى إليها تطور عظيم فى نفسية جماعة من النوع البشرى يرون أن رابطتهم الاجتماعية يجب أن تكون قائمة على ما يتوقون الوصول إليه من المكانات الروحية، والمدارك الأدبية، لا على مجرد الحاجات المادية والمطالب الأرضية.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، .ص ٥٤.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) آل عمران : ١٠٥.

وقد علم قراؤنا أن رابطة جماعة المسلمين هى من النوع الأول، فقد نشأت نشوءاً من بين جميع الروابط التى كانت موجودة على عهدها، على الأصول الخلقية، والمبادىء الأدبية؛ فإلى الاعتصام بهذه الرابطة يدعو الإسلام بنيه فى الآيات التى نسردها، وقد استعار لها كلمة الحبل من حيث أن التمسك به يكون سبباً للنجاة؛ ولم يقل لهم اعتصموا بقوتكم الحربية، ولا بنعرتكم الحماسية، مذكرًا إياهم بفضل هذا الدين عليهم، وهو أنهم كانوا أعداء فآلف بينهم، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها.

ثم قال لهم: ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، أى الأصول الواضحات التى لا يعقل الخلاف عليها. قال المفسرون: المنهى عن الخلاف فيه هنا الأصول لا الفروع، بدليل أن صحابة رسول الله أنفسهم لم يتورعوا عن الخلاف فى الفروع، وقد جاء فى السنة تحضيض على النظر والسريان فى سرائر المسائل وتفهمها على أتم الوجوه، فقال النبى ﷺ «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد» وهذا أبلغ ما عرف من الحث على البلوغ بالبحث التحليلى أقصى حدوده. وليس من شك فى أن هذا يولد الخلافات كما حدث فى جميع أدوار هذه الأمة فى فروع المسائل، كما يحصل فى كل أمة حية. فيكون النهى عن الخلاف قاصراً على الأصول التى لا يجوز الخلاف فيها إلا مكابرة أو عناداً.

(٢١) ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٢).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٣).

---

(١) القصص : ٨٣.
(٢) يونس : ٨١.
(٣) القصص : ٧٧..

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾(١).

قام الإسلام على مبدأ الإصلاح، إصلاح العقول بلفتها إلى أعلام الكون؛ وعدم الخبط فيما لا تعلم؛ وعلى إصلاح القلوب بتخليصها من العقائد الموروثة، وإقامتها على الفطرة الصحيحة؛ وعلى إصلاح المعيشة بحضها على استخراج كنوز الأرض، وتسخير قوى الطبيعة؛ وعلى إصلاح المجتمع بإقامته على أساس العدل والمساواة، وتخليصه من جراثيم المنكرات الخلقية، وعلى إصلاح الإنسانية قاطبةً باتباع المثل العليا فى معاملتها فى كل مناسبة توجب الاحتكاك بها.

وهذا القسم الأخير من البرنامج الإصلاحى لم يدخل فى حساب أية أمة من الأمم التى سبقت الإسلام؛ إذ كانت الأمم الأجنبية تعامل بسياسة العسف والمجافاة؛ فكانت الحروب التى يشنها بعض الشعوب على بعض تجرى على سنة التناحر والتفانى، لا غرض منها لكل من الطرفين إلا تجريد الآخر من جميع وسائل وجوده، غير رام إلى غرض آخر من الأغراض الإنسانية. ولكن لما كان الإسلام ديناً عالمياً بحكم طبيعته، كان أهله ينظرون إلى الأمم الأجنبية نظرة عطف وتودد، فإذا دعت الضرورة لشبوب حرب بينهم وبين إحدى الجماعات القائمة، أمروا أن يباشروها مشبعين بروح التسامح رامين من وراء ذلك إلى غرض أسمى، وأولى بالإنسانية، وهو تحقيق التعارف الذى نص عليه كتابهم فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢).

والإسلام وضع أول نظام دولى وُجد فى العالم يسوى بين الغالب والمغلوب فى الحقوق الطبيعية، بعد أن تضع الحرب أوزارها؛ وأول دستور حربى يحرم

(١) محمد : ٢٢ ، ٢٣.

(٢) الحجرات : ١٣.

على ذويه قتل النساء والولدان والهزمى والزمنى ورجال الدين، ويزيد فى سماحته فيعم بعطفه حتى خدم المحاربين.

والإسلام أول اجتماع بشرى يؤثر عنه من أخبار المحاسنة للمحاربين مالا يوجد له نظير فى أى مجتمع آخر إلى اليوم. فقد نهى النبى ﷺ عن تتبع المهزومين، وعن الإجهاز على المجروحين، وعن إرهاق الأسرى بالمتاعب، بل أمر أن يحسن إليهم، فكان الجنود الإسلاميون قياماً بهذه الوصايا النبوية، يكتفون بأكل الثمر ويؤثرون أسراهم بالخبز على أنفسهم.

ونهى الإسلام عن هدم مساكن المحاربين، وعن إحراق زروعهم، واعتبر ذلك كله من الفساد فى الأرض، ونهى عن ذلك فى عشرات من آيات الكتاب الكريم، فى عبارات تعتبر غاية فى التأثير فى النفس.

على هذا قام المسلمون، ففتحوا الممالك والأمصار، وأخضعوا الأمم و الشعوب فاتخذوا لأنفسهم ملكاً لا تغيب عنه الشمس، لم يشيدوه على ظبا السيوف وأسلات الرماح، ولكن على العدل والإنصاف والتسامح، فاعتبروا كما يقول الاستاذ الكبير (جوستاف لوبون) فى كتابه تاريخ العرب: أرحم الفاتحين على الإطلاق.

والعالم اليوم بعد ما مضى عليه بعد ظهور الإسلام نحو أربعة عشر قرناً يرى أن حياة الإنسانية تستدعى وضع حد لهذه الحروب، ودخول العالم كله فى وحدة عامة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[3].

---

(١) الأنفال : ٦١.
(٢) يونس : ١٣.
(٣) الأنبياء : ١١.

القرآن الكريم حافل بذم الظلم والتشهير به، ويذكر الأمم التى بادت بتأثيره حتى صارت كأن لم تغن بالأمس؛ وقد تنوعت هذه الآيات، وتجلت فى ضروب شتى من البيان، بحيث لا يستطيع الإنسان إذا تلاها فرادى أو مجتمعة، أن يتخلص من وقعها فى نفسه. و المسلمون فى حاجة ماسة إلى هذا البيان البعيد الغور فى التأثير، لأنهم دعوا ليؤسسوا الأمة العالمية النموذجية فى الأرض، فإن لم تكن من العدالة بحيث تمثل المثل الأعلى لها، لم تصلح لأداء مهمتها، ولم تبلغ الشأو الواجب أن تبلغه وهى بهذا الوصف.

كان الأقدمون يعرفون معنى العدل و معنى الظلم ولكنهم ما كانوا يعرفون حدود كل منهما، فكانت تلك الحدود متداخلة، شأنهما فى ذلك أكثر جميع المعانى المجردة إذ ذاك.

ذكر القرآن الكريم العدل الإلهى وقرر، على سبيل التمثيل، أن له ميزاناً لا تفلت منه الذرة، فقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١).

بل ذكر لنا الكتاب أن العدل والظلم قد يتعديان المحسوسات إلى المعنويات، وبناء عليه يحاسب الله على خطرات الأوهام وهواجس الأحلام لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٣).

لهذا السبب لم تبلغ المدنيات اليونانية والرومانية مبلغ الإسلام فى تقدير العدل والظلم، وما ابتنى عليهما من أحكام، ويظهر ذلك فى معاملتهما للشعوب، فإن الشعب اليونانى فرَّق بين من ينتسب إلى أصل يونانى، وبين من لم يمت إليه بسبب، فجعل للأولين جميع الحقوق الوطنية وخولهم حق

(١) الزلزلة : ٧، ٨.
(٢) البقرة : ٢٨٤.
(٣) الحجرات : ١٢.

السيادة على الآخرين، وجاراه فى ذلك الشعب الرومانى مضيفاً إلى ذلك شيئاً من الغلو، فلم يفرق بين من هو من أصل رومانى وبين من هو غيره فحسب، بل فرق بين الخاصة والعامة أيضاً فجعل للأولين الزعامة والقيادة والحماية، وفرض على الآخرين الخضوع والانقياد والطاعة.

فإذا قارنت بين آثار هاتين الأمتين ، وآثار الإسلام وجدت بوناً بعيدا، وخلافاً شديداً ينطق بأن اليونانيين والرومانيين لم يصلوا من لباب العدالة إلى مثل ما وصل إليه الإسلام، بل ولا إلى قريب منه. وإلا فأين ما قرره الإسلام بأن لا اختلاف الأجناس ولا الألوان ولا اللغات بضائرة أصحابها أمام العدالة شيئاً، مما قررته شرائع تينك الأمتين من أن كل تلك الخلافات موانع طبيعية عن تطبيق مبدأ المساواة؟

فبينما كنت ترى أصحاب الجنسيات المختلفة وذى الألسنة والألوان المتباينة، يلون مهام الدولة، وزعامة الدين والعلم لدى المسلمين حتى كان من مقدميهم أرقاء سود كثيرون لم تصادف قط فى تاريخ هاتين الأمتين حادثة واحدة من هذا القبيل تمثل العدل الإلهى المطلق على طوال ما مكنوا فى الأرض.

وقد أشار الكتاب الكريم إلى الأثر البالغ الذى يحدثه الظلم فى الجماعات، وحذر الآخذين به من غوائله، مشفعاً ذلك بأن الله ينشىء فى مكان الأمة الهالكة أمة أخرى تحل محلها، وتضطلع بما كانت تضطلع به من أعباء الاجتماع، وكرر لهم ذلك فى مناسبات شتى ليحرصوا على ما ائتمنوا عليه من المهام العالمية، ويتبقوا وجودهم فى مكانتهم الأدبية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

(١) محمد: ٣٨.

الحكمة الإسلامية[1]

(الحكمة) التى حلى الإسلام بها أتباعه وقاية لهم من الزيغ عن سبيل الحق

بينا فى بضعة الفصول التى تقدمت الأصول التى أقام الإسلام جماعته عليها وقد تبين منها للقارىء العلل الحقيقية للقوة الخارقة للعادة للبنية الإسلامية، فاستطاعت جماعته أن تقوم وسط المحللات التى كانت مسلطة عليها من كل جانب، وأن تحدث فى العالم حدثاً ضخماً غير الخريطة الأرضية، وأوجد روحاً من الإصلاح الاجتماعى العام، شعرت به كل أمة حتى أبعدها عن المجال الذى صدرت منه.

هذه حركة يجب أن لا تغرب عن بال أحد، لأنها المعجزة الخالدة لهذا الدين، والحكمة من إنزاله؛ ولأن مبادىء هذا الدين ومراميه البعيدة لم تبلغ بعد غاياتها العالمية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2].

وقد حلى الإسلام ذويه مع ما بيناه من التوجيهات الإلهية، التى تأدت إلى أكمل حالات الوجود، (بحكمة)، أي بمذهب عقلى، يقيهم شر التورط فى فلسفات عميقة تؤدي إلي ضلالات بعيدة، وتدلهم على المحال والممكن من مواضيع النظر والاستنتاج والاستدلال، حتى لايصرفوا قواهم العقلية فى أعقاب مطالب ليس وراءها فائدة عملية لهم، بله ما تجلبه عليهم من كثرة القيل والقال، والصرف عن سبيل الحياة الصحيحة.

وقد كان من آثار هذه الحكمة عليهم أن أشاحوا بوجوههم عن الفلسفة

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر، سنة ١٣٦٤هـ، ص ٩٧.

(٢) فصلت: ٥٣

اليونانية الكلامية، وتأثموا من الاشتغال بها، ولم يشجعوا من تطرف منهم للأخذ عنها، واكتفوا هم باقتباس الناحية العملية من تراث الأوائل، كعلوم الطبيعة والكيمياء والرياضيات والطب والفلك، فكان لهم فيها جولات بعيدة أدتهم إلى ثمرات لاتزال موضع إعجاب العلماء إلى اليوم، بنى عليها الأوربيون رقيهم المادى الذى أوصلهم إلى ماهم عليه.

اتهم كثير من فلاسفة أوروبا المسلمين بأنهم لم يشجعوا الفلسفة اليونانية ولم يأبهوا لها، بل عادوها وعاكسوها، يتذرعون بذلك إلى اتهامهم بقصر النظر، ويخيل للذين يزاولون الفلسفة من المسلمين أن هذه التهم تشين آباءهم الأولين، فيجهدون أنفسهم فى التدليل على أنهم اشتغلوا بالفلسفة اليونانية، ويستشهدون بأقوال رجال يعدون على الأصابع، ويرددون أسماءهم فى كل كلام لهم عن الفلسفة، دفعاً لتهمة عدم اشتغال المسلمين بالفلسفة اليونانية، وبالصد عنها.

ويغيب عنهم أنهم مهما أسرفوا فى التدليل على اشتغال المسلمين بالفلسفة اليونانية فلن يستطيعوا أن يثبتوا أنهم قابلوا تلك الفلسفة بصدر رحب، وأنهم لم يتهموا أشياعها بالزيغ عن الدين.

والذى نريد أن نثبته هنا بالأدلة القاطعة، أن المسلمين ما كانوا ليقفوا من الفلسفة اليونانية هذا الموقف العدائى، إلا لأنه كانت لهم فلسفة أرقى منها بما لا يقدر؛ هى (الحكمة) التى أوتوها فى كتابهم السماوى؛ وهذا التفوق البالغ هو الذى نريد أن نبينه هنا بالأدلة القاطعة، وهذا هو السبيل الذى كان يجب أن تقابل به تهمة الفلاسفة الأوروبيين للمسلمين فى مناوأتهم للفلسفة اليونانية. إذا كنا فعلنا ذلك كنا أثبتنا للمسلمين عذراً معقولاً فى موقفهم من تلك الفلسفة، وكشفنا لهم عن ناحية من الإسلام توجب الإعجاب والدهش معاً، من احتواء كتابنا على أصول فلسفية، لم يظهر لها وجود إلا فى العصور الأخيرة.

ونحن عارضون على القراء الأصول الأولية التى اشتغلت بها الفلسفة

اليونانية نحو خمسة وعشرين قرناً، وشغلت بها العالم طوال تلك الآماد، ثم ظهر بطلانها فى العهد الأخير، وآب الناس إلى ما قررته الحكمة الإسلامية قبل نحو أربعة عشر قرنًا؛ أى فى عهد كانت فيه الفلسفة اليونانية فى أوجها الأعلى.

اشتغلت الفلسفة اليونانية قبل كل شىء كأساس لبنائها، بمسألة الوجود المحسوس، وعلة نشوئه وبمسألة الكائنات وحدوثها، وبمسألة الروح ومصدرها ومصيرها، وبمسألة الإنسانية وآدابها إلخ، وكان اعتمادها فى كل هذا على الفكر والتأمل، وناهيك بقصورهما فى عهد الطفولة البشرية، ودائرة المجاهيل الكونية، فجاءت الفلسفة مناسبة لهذه الحالة من القصور لا محالة، ولاعاب على أهلها من هذه الناحية، لو كانوا أدركوا عجزهم عن الوصول للحقائق، واعترفوا به، ولم يتعصب كل فريق منهم لرأيه ويعتبره حقاً مطلقاً. وأنّى لهم هذه الحكمة العالية التى هى من حظ النضج العلمى، والرشد الفلسفى؟ فمن النضج العلمى التفرقة بما يمكن العقل البشرى الوصول إليه، وما لا يمكن الوصول إليه، وما يجب أن يكون عليه أسلوب البحث الذى يؤمن معه الخطأ، وقد كان أسلوبهم المنطق، وهو أداة لا يجوز استعمالها فى غير المعقولات، أما فى الكونيات فلا يجوز استعمالها إلا حيث تكون المسلمات مقطوعًا بصحتها، صحة لا يتطرق إليها الشك، وأين هذا مما تخوض فيه الفلسفة من قدم المادة أو حدوثها، ومن بساطتها أو تركبها، ومن القوى العالمية وحدودها، ومن ومن إلى ما يحصى من المجهولات الكونية؟

إذا كان الأمر كذلك فيكون الاشتغال بالفلسفة فى ناحيتها النظرية، وخاصة فى دور طفولتها، إضاعة للوقت وصرفاً للجهود فيما لا يفيد؛ أما فى ناحيتها العلمية العملية وكانت الفلسفة عند اليونانيين تطلق على الناحيتين، فإن ذلك أمر لا يجوز إغفاله وقد بذل المسلمون جهداً جاهداً فى الاشتغال به، فاقتبسوا من كل الجماعات التى احتكوا بها ما كان لديها من وسائل عملية، وثمرات تجارب مادية، فى كل مجال من المجلات الطبيعية؛ فأخذوا عنها ما انتهوا إليه من الحقائق الفلكية، والطبيعية، والكيمائية، والطبية، والرياضية، وعنوا بها

عناية فائقة حتى سبقوا بها أهلها، وقاموا بتدريسها فى جامعاتهم ومعاهدهم، وأصبحوا أئمتها الأعلام مدى قرون متوالية، كما نقلنا ذلك عن مؤرخى الفرنجة فى هذه المجلة فى مناسبات جمة.

يقول قائل: إن الأمم التى يكمل تركيبها الاجتماعى، وتتجه نحو الترقى الأدبى لا يمكن أن تستغنى عن الفلسفة، ولوصح ذلك لا ستغنت عنها أوروبا الثرية بمعارفها الطبيعية اليقينية.

نقول هذا صحيح، وقد كان للمسلمين فلسفة هى المشار إليها فى كل كتبهم بكلمة (الحكمة)، وهى أرقى من الفلسفة اليونانية بما لا يقدر، وتتفق والفلسفة الوضعية التى هى أرقى وأصدق من جميع الفلسفات العصرية فى أصولها الأولية.

أما وقد انتهينا إلى هذا الحد فيحسن بنا أن ندلل على أن الحكمة القرآنية أرقى من الفلسفة اليونانية، وأنه لهذا السبب لم ير المسلمون أن يستبدلوا بها أية فلسفة بشرية.

من أصول الحكمة الإسلامية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

أى لا تتبع كل ما يقال لك مما ليس لديك عنه علم يقينى، لأن الإنسان يسأل يوم الحساب عما تلقاه سمعه وأدركه بصره ووعاه قلبه من المدركات غير المحققة، التى قد تجر إلى معتقدات ضالة، إو جهالات ضارة، وقد أمر الإسلام أهله بمطالبة كل صاحب قول بالدليل عليه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

وكشف عن السبب فى هذا التدقيق الشديد بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[3].

فشرط الحكمة الإسلامية، أن لا يأخذ الإنسان بالمقررات الظنية، قبل أن

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) البقرة: ١١١.
(٣) النجم: ٢٨.

تثبت ثبوتاً لايتطرق إليه الشك، وهى فى هذا الأصل الأولى توافق الفلسفة الوضعية positivisme، وهى أحدث الفلسفات نشوءاً، وأعمها سلطاناً على العقول؛ فقد تعبت الإنسانية من الفلسفات الظنية، وأنفت أن تنقض فى كل جيل ما أبرمته ودانت له فى الجيل الذى قبله؛ فضلاً عن أنه كثيراً ما أدت الظنيات إلى بناء أحكام خيالية، وطوحت بأهلها إلى مناح شتى من الخلافات، وفتحت لهم باحات المجادلات الكلامية على غير طائل؛ بل ضاعت معها كرامة الفلسفة التى لها فى قلوب البشر مكانة رفيعة. فالفيلسوف لا يشينه أن يقول إذا سئل عن مجهول: لا أدرى ولكن يشينه أن يخبط فى المجهولات خبط العشواء، وأن يتلمس لكل معلول علة ظنية تتكشف بعد أمد قصير عن جهل فاضح، وقصور شائن.

هذا رأى الفلسفة الوضعية التى أساسها الدليل المحسوس، الذى لاينقض فى أى عهد من العهود المستقبلة، وهو بعينه أساس الحكمة الإسلامية.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1].

ماذا كانت الفلسفة على عهد نزول الإسلام؟ كانت حشواً رثاً من أقاويل فلاسفة اليونان فى قدم المادة وكيفية تطورها، وفى القوى العالمية وآثارها فى الكائنات، وفى الأجرام السماوية وحركتها... إلخ. كل هذه المعارف كانت مبنية على خيالات لا حقيقة لها، سيتضح مما ننقله عنها أنها كانت غائرة الأصول فى السذاجة العقلية.

أراد الفيلسوف (طاليس) المولود سنة (٦٣٦) أو (٦٣٩) قبل الميلاد، بعد أن زعم أن المادة أزلية لا أول لوجودها، أن يوضح على أية حال كانت موجودة، فقال إن المادة الأولية هى الماء فبتكاثفه وجدت الأرض، وبتمدده وجد الهواء والنار. وأنت تعلم اليوم مبلغ هذا القول من البعد عن الحقيقة، وإلى أى حد عو عريق فى السذاجة والجهل. فالماء مؤلف من عنصرين غازيين أحدهما دعى

(١) إبراهيم: ٢٧.

أوكسجين والآخر دعى أيدروجين، ولو تكلمت وسائلنا المحللة لأمكن تحليل كل من الأكسجين والأيدروجين إلى عناصر ألطف منهما.

ولو كانت الحالة وقفت عند هذه الحد لقلنا جهل يعذر فيه أهله، أو كما يقال اليوم رأى افترض مؤقتاً حتى يثبت غيره، ولكن تتابع الفلاسفة بعده وارتأى كل منهم رأياً خاصاً به، كأن المسألة كانت تسابقاً فى التخيلات، وتبارياً فى الظنيات.

فجاء الفيلسوف (انا كزماندر) المولود سنة (٦١٠) قبل الميلاد فنقض رأى سلفه وقال: ليس الماء هو المادة الأولية، ولكن أصل كل شىء هى اللانهاية المطلقة، أى الحالة غير المحدودة التى يخرج منها ويعود إليها كل كائن مقوداً بحركة أزلية. وكان يرى أن الكواكب آلهة سماوية، تدبر أمر الكون وتصرفه كما تشاء وهذا كلام متغلغل فى عالم الخيال؛ فإن اللانهاية الخالية من الموجودات لا يعقل أن تولد شيئا من الأشياء. ومن أين جاءه أن تلك الأجرام السماوية آلهة علوية، وقد علمت اليوم أنها إن كانت نجومًا فهى أجرام فى حالة احتراق مثلها كمثل الشمس؛ وإن كانت كواكب فهى أجرام أرضية تكتسبها من لألاء الشموس التى تكتنفها فى تلك اللانهاية.

ما قبل الحكمة الإسلامية[1]

تابع (الحكمة) التي حلي الإسلام بها أتباعه وقاية لهم من الزيغ عن سبيل الحق.

إن متتبعى فلسفة (أنا كزيماندر) المار ذكره، يقولون بأنه كان يقرر بأن تلك اللانهاية الوجودية لم تكن خالية، بل كانت تشتمل على أصل المادة من أزل الآزال، على حالة من اللطافة لا يدركها العقل، وأنها كانت مالئة للكون كله، ومنها حدث كل كائن قال: «وإن هذه المادة الأولى تشتمل على كل شيء وتدبر كل شيء».

وهذا القول بعيد عن التحقيق، ولايمكن تصوره، فإن المادة لو كان لها أصل أزلى لكان هذا الكون نفسه على ما هو عليه أزلياً مثله، إلا إذا افترض أن لأصل المادة إرادة وحكمة واختياراً، فتوجد الكائنات أو لا توجدها. وكبير على العقل أن يتصور أن لأصل المادة مثل هذه الإرادة. وما دام أنا كزيماندر لايكبر عليه أن يثبت للمادة إرادة وحكمة واختياراً، فما الذى منعه أن يثبت هذه الصفات لخالق واجب الوجود، منزه عن كل نقص، أوجد الوجود بإرادته وعلمه وحكمته، وحلاه بكل ما يقومه ويطوره من القوي والقابليات.

لاشك فى أنه أراد بما ذهب إليه، أن يثبت أن الكون ليس فى حاجة إلى موجد خارج عنه، فأسند الخصوصيات الإلهية لذات المادة، رغبة منه فى أن يعقل ما يقول؛ ولكنه أوجد إشكالات فلسفية وعلمية يستحيل أن يوجد لها حل. وهى اليوم أشد ما تكون بعداً عن العقول. فهل كان من فائدة المسلمين

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر، سنة ١٣٦٤هـ، ص ١٤٥

الأولين الذين دُعوا لنشر الدين العام فى الأرض، أن يشتغلوا بمثل هذه السفاسف؟

ثم نبغ بعده الفيلسوف أنا كزيمانيس، ونظر فى فلسفة أنا كزيماندر سلفه، فأنس أن نظريته تعجز عن تعليل إيجاد الحياة، لأن المادة الأولية التى افترض أنها أزلية، ساكنة. وأعمل فكره فعثر على ما يكفى فى نظره أن يولد الحياة، وهو الهواء، تصيد هذه النظرية من رؤيته أن دوام الحياة متوقف على دوام التنفس، فاستنتج من ذلك أن أصل الوجود يجب أن يكون هو الهواء. فإنه ما دامت الحياة تتوقف عليه فلابد من أن يكون هو أصل الحياة. قال فالهواء غير منظور والروح غير منظورة، والهواء يتحرك والروح كذلك، فربما يكون هو روح الإنسان وروح كل حى.

ثم قال: ليس الهواء روح الإنسان فحسب، ولكنه روح العالم كله، أي إنه مادته الأولى، وقوته الأولى، وهو لايزال يتحرك ويتغير من مادة إلى مادة ومن صورة إلى صورة، فإذا رق استحال إلى نار، وإذا تكثف استحال إلى غيم وإلى ماء وتراب وحجر. وإذا رق فوق رقته أوجد الحرارة، وإذا تكثف أحدث البرد. وهذه الأرض ليست فى ذاتها إلا هواءً متكثفاً. والأجرام السماوية، على رأيه، أجزاء تطايرت من الأرض، ولسرعة حركتها رقت فتولدت فيها الحرارة والنار!

نشأت بعد هذه السلسلة من الفلاسفة الفلسفة التي أسسها فيثاغورس، وهو فيلسوف يوناني يشك في وجوده وقيل إنه مات سنة ٥٤٠ق.م. وكان شغله هو وتلاميذه الرياضيات والفلك والموسيقي. ومما أثر عنهم قولهم: « جوهر كل شيء في العدد» أو «كل شيء عدد». وآراؤهم في أصل الكون والكائنات غير واضحة ولا يعول عليها أحد.

ثم ظهرت المدرسة الأليأوية في الفلسفة بواسطة الفيلسوف اكزينوفانوس من يونان أسيا الوسطى، وكان وجودها سنة(٥٤٠) قبل الميلاد.

يعرف عن هذا الفيلسوف أنه ثار على العقائد، وقال: «إن كل تصور للخالق عند المتدينين محول عن الإنسان، أى مصنوع على صورة الإنسان».

ومن فلسفته أنه توجد عوالم لا نهاية لها، ولكنه لم يعتبر الكواكب الظاهرة لنا فى السماء من العوالم، وزعم أنها تصعدات نارية من الأرض!

من مشهورى هذه المدرسة بارمينيدس، المولود سنة ٥٢٠ قبل الميلاد، وكان ينكر وجود العدم ووجود الفراغ، وكان يقول إن وجود شىء من لا شىء أمر محال، وكان يقول: «إن الشىء الذى يفكر فينا والكون الكلى شىءواحد» ومعنى هذا أن فلسفة هذه المدرسة كانت تقول بوحدة الوجود؛ أى إن الخالق موجود فى كل شىء، وأن كل شىء هو الخالق نفسه.

ولايخفى على ذى عقل اليوم أن مثل هذا القول يؤدى إلى مشاكل فلسفية لا تقبل الحل، وإن الذين يبتلون بمثل هذه الفلسفة لايزالون يتجادلون حتى تقوم الساعة، ولا يصلون منها إلى شىء يثلج عليه الصدر، ناهيك أنه لا يوجد اليوم من يشتغل بهذه المسائل.

كان لاكزينوفانوس المتقدم ذكره تلميذ اسمه هراكليت، ناقض تعاليم أستاذه وكانت فلسفته غامضة إلى حد أن لا تفهم. كان أسلافه يعتبرون كينونة الأشياء، أما هو فكان لا يعنى إلا بصيرورتها. فكان يقول: إن الأشياء على الدوام فى حالة مصير، تظهر وتزول، ولكنها غير كائنة فى وقت ما.

وكان أسلافه يعتبرون العناصر المؤلفة للموجودات ثلاثة: الماء والهواء والمادة. أما هو فكان يعتبرها أربعة بزيادة النار عليها، وكان يعدها أهم من الثلاثة الأولى.

وقد أثر عنه قوله: «إن العالم لم يصنعه إله ولا بشر، وإنما هو كان موجوداً وهو كائن اليوم وسيكون على الدوام، ناراً دائمة تشتعل وتخمد إلى حد ما، فهو لعبة يلهو بها جوبيتير مع نفسه»، وجوبيتير هذا أبو الآلهة عند اليونانيين.

وورح الإنسان فى نظر هيراكليت نار مقتبسة من النار الأزلية.

وكان يقول: إننا نظن أننا نرى أشياء ثابتة، والحال أنها فى حالة التغير والمصير، فمعارفنا إذاً ناقصة وفارغة، والحياة نفسها باطلة ولا غاية لها.

ومذهبه جملة يتلخص فى هذه العبارة، وهى: «إن مبدأ الكائنات النار، فما تكاثف منها وتحجر فهو الأرض، وما تحلل من الأرض بوساطة النار صار ماء، وما تحلل من الماء بحرارتها صار هواء. فالنار هى أول كل كائن، ويليها فى الوجود الأرض ويجىء بعدها الماء ثم الهواء. فالنار هى الأصل وإليها المآب، فمنها التكوين وإليها الفساد».

ونحن نرى أن فلسفة كهذه الفلسفة لا يجوز أن يشتغل بها عاقل، فكيف بأمة كُلفت بأن تطلب دليلاً على كل دعوى، أمة يقول لها كتابها: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

ثم نبغ أمبيدوكل سنة ٤٥٠ قبل الميلاد فوفق بين كينونة الألياويين، وبين صيرورة هيراكليت، وذلك بأن اعتبر الصيرورة تجديداً لما كان، وبذلك تصير ضرباً من ضروب الكينونة. وهو الذى نسب إليه القول بالعناصرالأربعة التى اعتبرت أصولاً للتكوين قروناً كثيرة، حتى ظهر الكميائى لافوازييه فنقض ذلك باكتشافه الأوكسجين فى أواخر القرن الثامن عشر.

وقد اعتبر أرسطو أول من قال بالعناصر الأربعة خطأ.

وأمبيدوكل مثل سلفه هيراكليت يعتبر العالم أزلياً أى غير مخلوف.

وكيفية تفسيره للكون هو أن جميع العناصر الكونية كانت متجمعة بعامل الألفة كرة واحدة، وكانت هذه الكرة فى أول أمرها ساكنة، ثم حدث التنافر بينها، وحل فيها الانقسام فتجاذبت وتدافعت ومن ذلك التجاذب والتدافع وجد العالم.

وبعد أن تكوَّن العالم على هذا الوجه، تكونت الأرض والعالم العضوى

(١) الكهف: ٥١.

رويداً رويداً، نشأ الأكمل من الأنقص، وربما حدثت فى أثناء ذلك التكون صور غير منتظمة لا تصلح للبقاء على ما هى عليه، فتخلصت من هذه الموانع ونالت تركيباً أصلح للبقاء.

وكان يعتقد بتحول المادة، فقد كان يقول إن العناصر التى يتألف منها الإنسان ربما كانت قد مرت بجميع المركبات التى قبله.

وهذه الآراء كلها لا تخرج عن الظنون، فليست مستقرة على أساس من العلم، والشغل بها لا يؤدى إلى حقيقة يصلح عليها المجتمع ولا الفرد، فلم يشتغل بها المسلمون وعافوها كما عافوا كل قول ملقى على عواهنه بإيعاز من حكمتهم.

ثم ظهر الفيلسوف (لوسيب) أو لوسيبوس، وقد رجح مؤرخو الفلسفة أنه قد يكون أول من قال بالجواهر الفردة، وذلك أنه قال بوجود فراغ مطلق تسبح فيه منذ الأزل دقائق صلبة لاتدركها الحواس، متساوية الحجوم ولا عدد لها. وهذه الأجزاء لا تقبل الانقسام إلى أصغر منها فهى على أقصى حد من الصغر الذى لا صغر بعده، وهى التى تتألف من تجمعاتها الكائنات المادية من أول التراب والحصباء إلى الكواكب إلى الإنسان.

كان للوسيب تلميذ اسمه ديموكريت شهر هذا المذهب وعممه، وشبه الجواهر الفردة بالغبار الموجود فى الهواء ولا يدرك إلا إذا نظر إليه سابحاً فى الأشعة الشمسية. قال وجميع الكائنات العالمية تتألف من اتحاداتها المختلفة، وإنما تختلف هذه الكائنات باختلاف هذه الجواهر الفردة فى الجرم والصورة والوضع. وهى إذا تراكمت لتوليد الكائنات تكون منفصلة بعضها عن بعض بمسافات فارغة أكبر منها؛ وهى متمتعة بحركتين حركة دائرية وحركة مستقيمة.

وقال إن عدد العوالم لا نهاية له وتكوّن العوالم وتلاشيها حاصلان فى الكون الآن كما كانا حاصلين فى القدم.

أما الروح الإنسانية فهى مركبة أيضاً من هذه الجواهر الفردة، ولكنها كروية، وفى منتهى اللطافة، تشبه جوهر النار، وهى التى تولد حرارة الجسد ولكل جسد روح وحرارة معينة. وهذه الروح لا تنفك تطلب الانفصال عن الجسم، إلا أنها لا تستطيع ذلك لوجود التنفس، فإذا بطل هذا التنفس حدث الانفصال ومات الجثمان.

وقال: والآلهة كذلك ليسوا سوى جواهر فردة متجمعة، والفرق بينها و بين الإنسان أن جواهرها أقوى وأكثر حياة من جواهر الإنسان.

وقال: إن الروح البشرية ليست خالدة لأنها مؤلفة من جواهر محترقة، فإذا حصل الموت انحلت هذه الجواهر، وصارت جواهر للنار.

وهو من كبار الذين قالوا بأن ليس يعقل حدوث شيء من لا شيء، وإنه لايعقل أن يتلاشى أى شيء.

والمسلمون اضطروا أن يرفضوا الاشتغال بهذه الأقوال الفارغة؛ لأن الحكمة التى كانوا يدينون بها كانت تنهاهم أن يأخذوا شيئاً من العلم دون دليل، وأين الدليل من قول ديموكريت الذى بيناه هنا، وهو يتعلق بأول الأشياء ومبدئها، فكان إحجامهم خير ما يجب أن يفعله عاقل حيال نظريات كلامية لا فائدة وراءها إلا إضاعة الوقت سدى.

فلسفة أفلاطون وأرسطو[1]

مقارنة بالإسلام

تابع (الحكمة) التي حلي بها الإسلام أتباعه

وقاية لهم من الزيغ عن سبيل الحق

ظهر بعد الفيلسوف ديموكريت الفلاسفة السوفسطائيون، وكان أساس مذهبهم التشكيك بكل ما هو معلوم وما سيعلم، وتمادوا حتى أنكروا الخالق. فأحدهم وهو بروتاغوراس (٤٤٠ ق.م) قال: «إنه لا يستطاع أن يحكم هل الآلهة موجودون أم غير موجودين»، فاتهمه الآتينيون بالكفر وطردوه.

ثم تجاراً من بعده فصاروا يشككون الناس جهاراً في آلهتهم، وينكرون وجود الخير المطلق، ويقررون أن العدل والظلم أمور اعتبارية، وأن اللذة هي السعادة الحقيقية.

ثم ظهر اريستيب فوضع علماً جديداً في الأخلاق، أسسه على اللذة الجسدية التي اعتبرها غاية السعادة الإنسانية.

كان هذا الفيلسوف خاتمة الفلاسفة اليونانيين الذين رموا إلى تعليل الوجود بغير خالق أوجده من العدم. وبعدهم خلا الجو للفلسفة العقلية، التي أساسها الإيمان بالخالق، وقد وضع أساسها الفلاسفة الثلاثة سقراط وأفلاطون وأرسطو.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، ص ٢٠٣.

فأما سقراط فلا نطيل الكلام عنه لأنه لم يكتب فلسفته، ولكنه أودعها تلميذه أفلاطون فنقلها عنه، وشرحها وزاد فيها، وعم صيته الآفاق.

فلسفة أفلاطون:

قرر أفلاطون أن للعالم إلهاً هو الخير المحض والعقل والروح، ويساويه فى الوجود الأزلى المادة والمُثُل التى صدرت على صورها جميع الكائنات العالمية. هذه المادة الأزلية كانت خليطاً مشوشاً، فأراد الله خلق الكون فأنشأه مطابقاً لتلك المُثُل الأزلية على قدر الإمكان، لأنه لما كانت المادة غيركاملة، فقد التاثت بنقائص شتى، وبميول شريرة فى الكائنات الحية.

وإنما نشأ الكون من مشاركة المادة للمُثل من طريق الانكسار، كما تتولد الألوان من انكسار الضوء.

أما النفس الإنسانية، فهى جزء من النفس الإلهية الكلية، حلت بالجسم فنسيت مصدرها وحُجبت عنها صفاتها من السمو والمعرفة. ولها ثلاث قوى: النفس العاقلة ومقرها الرأس، والنفس العصبية ومركزها القلب، والنفس الشهوانية وموضعها البطن.

والمعرفة عند أفلاطون هى تذكر للماضى، لأنها قبل أن تصبح النفس جزئية فى الإنسان كانت محيطة بجميع المعارف وهى متصلة بأصلها، لا يغيب عنها شىء فى الأرض ولا فى السماء.

هذه هى الأصول الأولية لفلسفة أفلاطون، فلما عرضت على الأمة التى أُمرت أن لا تأخذ علماً إلا بدليل، طلبت الأدلة على هذه الأصول فلم تجدها، بل وجدت شكوكاً اعترضتها دونها، واستشكالات عويصة تمثلت حيالها. فكيف يعقل أن يكون بجانب الخالق الأزلى واجب الوجود، مادة أزلية متصفة بجميع صفات النقص، وعارية عن كل مقوم ذاتى، وإلى جانبهما مُثُل أزلية أيضاً، صُورت الكائنات على صورتها ؟

إن الأمة الإسلامية التى أوتيت (الحكمة) وأمرت أن لا تأخذ إلا بالأقوال الثابتة، رفضت أن تأخذ بهذه الخيالات؛ وقد اعتُبرت هذه الفلسفة خيالية فعلاً وضرب بها المثل فى ذلك عند الفلاسفة المتأخرين فإذا قالوا هذه نظريات أفلاطونية أو مناقشات أفلاطونية، عنوا بذلك أنها خيالية محضة. أفلا يكون للمسلمين واسع العذر فى عدم الاشتغال بها وفى تطلب ما هو أثبت منها؟

وإنى فى هذا الموطن أرى أن أوجه نظر القراء لأمر جدير بالتأمل فى سمو الحكمة الإسلامية وشدة تأثيرها فى عقول أتباعها. إن هذه الفلسفة الأفلاطونية سحرت جميع الأمم السابقة، وتطورت معهم فى صور شتى، جميعها خيالية مثلها، حتى انتهت إلى عصر النضج العقلى فى الثلاثة القرون الأخيرة، فأحيلت إلى حقيقتها، أفلا تعجب بعد هذا من المناعة المدهشة التى حلت بها «الحكمة الإسلامية» أهلها، فلم يؤثر سحر هذه الفلسفة عليهم كما أثر فى سواهم قروناً طويلة؟

قد يقول قائل هنا إن هذا التأبى منهم لم يكن مصدره أنفة عقلية عن قبول الخيالات، ولكنه كان جموداً دينياً منعهم من الاستفادة بالفلسفة اليونانية. نقول يجوز أن يطوف هذا الظن ببعض القلوب لو لم يكن عند المسلمين أصول مقررة، تمنعهم من الأخذ بالخيالات مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٣).

كل هذا يدل على أن إباء المسلمين عن قبول هذه الفلسفات كان عن علم بأن

(١) البقرة: ١١١.
(٢) الانعام: ١٤٣.
(٣) النجم: ٢٨.

كل ما يكون مصدره الظن يكون خيالاً، وكل خيال ينقض بمثله، وأنهم ليسوا من الخيال فى شيء، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

وإنى ألفت الذين يدّعون بأن امتناع المسلمين عن الأبْه بالفلسفة كان صادرًا عن جمود دينى، إلى أنهم لم يمتنعوا عن أخذ العلم الثابت عن أية أمة من الأمم، فأخذوه عن اليونان والرومان والسريان وغيرهم وألفوا بينه وجعلوه علماً عربياً قاموا بنشره فى كل بلد احتلوه من بلاد العالم، واعتبروا أئمته فى الأرض. فأين مكان الجمود الدينى هنا من رؤوس تلك الأمة، وقد بزّت العالمين فى كل محاولة من المحاولات العلمية والمدنية؟

فلسفة أرسطو:

أرسطو هذا كان تلميذاً لأفلاطون مدة عشرين سنة، ولما توفى أستاذه سنة (٣٤٧) قبل الميلاد استقل بنفسه وأنشأ مدرسة يدرس فيها فلسفته.

كان يُظن أن أرسطو يبنى على فلسفة أستاذه أفلاطون فيعلى بناء صرحها، ولكنه تحول عنها إلى فلسفة جديدة حتى قال نقدة الفلسفة: كأن أرسطو لم يخلق إلا لنقد فلسفة أستاذه.

ونحن نقول ما دامت المسألة خيالية باحتة، لا تستند لأى دليل مادى، فكل من يؤانس فى نفسه خيالاً قوياً، يستطيع أن يؤسس فلسفة جديدة، ولكنا لاننسى مع قولنا هذا أن هذه الخيالات كانت نزوعاً من أصحابها لبلوغ الحقيقة، وأن منها ما يشعر بسعة عقول واضعيها، ولكنا لانجوّز أن ينخدع أحد بها فيجعلها شغله الشاغل، ويتعصب لها كما فعل الأقدمون غروراً منهم بها. فسَقياً للأمة الوحيدة التى لم تنخدع بها، وهى الأمة الإسلامية، وظلت حريصة على المذهب التثبتى الذى بثته فيها (الحكمة) التى جاءت فى قرآنها.

نحن الآن حيال فلسفة أرسطو واضع علم المنطق، وإنه لعقل واسع الآفاق، بعيد مدي النظر، استحق صاحبه أن يطلق عليه (اجوست كومت) قوله: «إنه لا شبيه له».

كان أرسطو كأفلاطون تلميذاً لسقراط، فلما مات هذا وخلفه على مدرسته أفلاطون، تلمذ له أرسطو عشرين سنة. فلما مات أسس له مدرسة خاصة على أرض هيكل (ابولون) ودرّس بها مذهباً جديدا عارض فيه أستاذه أفلاطون. توفى سنة(٣٢٢) قبل الميلاد.

كان أرسطو يقول كأستاذه أفلاطون (بأزلية) المادة، فالله لم يخلق هذه المادة فى رأيه ولكنه نظمها فقط!

وكان أستاذه يقول بوجود مُثُل أزلية أيضاً كوّن الخالق الكائنات على صورها، ولكن أرسطو رفض هذا القول واكتفى عن المثل (بالصورة). وقال إن غرض الفلسفة العلم بالموجودات، وهذه الموجودات تتغير، والتغير لا يكون إلا بحركة، والحركة تستلزم محركاً.

قال: والحركة الطبيعية أبدية ولا بد لكل متحرك من محرك ، وكل محرك لا بد له قوة تحركه وهلم جرا، حتى ينتهى الأمر إلى محرك لا يتحرك بغيره، فهو جوهر وفعل معاً. فهذا المحرك الثابت هو الله تعالى مصدر الحركة الأبدية التى تتم بطريق الانجذاب نحو العقل الكلى والشوق إليه. وبناءً عليه ينجذب عالما الأرواح والأجسام نحو الله بدافع ذاتى.

وقد قلل أرسطو من قدر الألوهية فزعم أن الإله مشغول عن العالم بمشاهدة ذاته وبالتمتع بسعادته العظمى.

وقد وضع أرسطو علم ما وراء الطبيعة ودعاه علم العلل الأولية. ومما قاله فى كتابه المشهور الذى أسماه (ألقوسمولوجيا):

«إن العالم قسمان سماوى وأرضى. أما السماوى فمتمتع بحركة دائرية صادرة عن الله تعالى مباشرة، والنجوم (أزلية) خالدة، وهى مكونة من الأثير، ولذلك لا تقبل الفساد. وإن سماء النجوم الثوابت هى مقر الكون والحياة الكاملة والنظام الثابت. وهذه النجوم كائنات لا يعتريها الهرم، حية حياة سعيدة، ودائبة على العمل دون كلال، وهى أقرب للألوهية من الإنسان.. إلخ».

ولايخفى على القارىء أن كل هذه الاقوال لا يمكن أخذها على علاتها، فمن الذى يستطيع أن يعقل أن المادة أزلية، وأن النجوم كذلك أزلية لا يعتريها الهرم، وأنها حية حياة سعيدة، وهى أقرب للألوهية من الإنسان ؟

وفى الجملة أليست هذه الفلسفة من ثمرات القوة المتخيلة فى الإنسان، فهل من بأس على أمة تتعصى على الأخذ بالخيالات، أن تشترط أن تؤتى بالدليل عليها؟ فإن عجز أصحابها عنه طرحت بها إلى عالم الأوهام ، وأقبلت هى على ما ينفعها من علم ثابت، وحقيقة راهنة؟ أليس أصحاب الفلسفة العصرية على هذه الشاكلة الأخيرة، يرفضون كل ما لا يقوم عليه دليل محسوس، أو ما فى مستواه؟

هذا الموقف من المسلمين كان ثمرة (الحكمة) التى أوتوها، وقد اتفقت هذه الحكمة وفلسفة العصر الحاضر من هذه الناحية، فكانت أسبق منها إلى مبدأ التثبت بنحو ثلاثة عشر قرناً؛ وإذا ساغ لنا أن نقسم المعجزات القرآنية إلى كونية ونفسية وشرعية .الخ، فلم لا يسوغ لنا أن نسمى هذه بمعجزته الفلسفية؟

الحكمة الإسلامية ماثلة في صورة مذهب[1]

قلنا فيما تقدم إن امتناع المسلمين عن الاشتغال بالفلسفة اليونانية لم يكن صادراً عن جمود دينى، بدليل أنهم اشتغلوا بالعلوم الطبيعية الثابتة واقتبسوها أنى وجدوها عند الأمم التى احتكوا بها، حتى أصبحوا فى قرنين حملة أعلامها فى العالم أجمع؛ ولكنهم أبوا الاشتغال بالفلسفات المختلفة، لأنه كانت لديهم فلسفة أرقى منها كانت ماثلة فى (الحكمة) التى نوه بها كتابهم فى آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾[3].

والآن وقد فرغنا من عرض أصول أشهر الفلاسفة اليونانيين، ووقفنا القراء على أرفع ما لديهم منها، رأينا أن نأتى بأصول الحكمة القرآنية ماثلة فى صورة مذهب، لتسهل مقارنتها بسواها، ليتبين القارىء بدليل محسوس سموها المطلق على كل ما عداها، وعلى أنها هى الفلسفة التى كتب لها الخلود، بعد دثور جميع المذاهب البشرية.

أصل الوجود فى الحكمة الإسلامية:

رأى قراؤنا أن أصل الوجود فى فلسفة أفلاطون إله أزلى، يساويه فى الوجود الأزلى مادة مشوشة، ومُثُل للكائنات أزلية أيضاً، فخلق الإله الخلق على

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، ص ٢٤١.
(٢) البقرة: ٢٦٩.
(٣) البقرة: ٢٣١.

صورة تلك المثل، فنشأت كل الموجودات الأرضية والسماوية على ما هو عليه فى العالم المادى.

وقد وافقه تلميذه أرسطو على ذلك وخالفه فى المثل، فأبدلها بالصورة، وهو خلاف لفظى محاط بمبررات خيالية لا قيمة لها.

أما ما قررته الحكمة الإسلامية، فهو أن أصل الوجود إله متصف بجميع الكمالات على وجه الإطلاق، ولا يساويه فى أزليته شىء، فأراد أن يكون الوجود، فكان على مقتضى علمه وتدبيره. ولما كان العقل البشرى، وخاصة قبل دور النضج العلمى، يحاول أن يدرك ماهية ذلك الإله، وقد ابتنى على هذه الشهوة العقلية حصول اختلاف كبير بين الأمم قديماً وحديثاً، وقعوا بسببه فى التشبيه والتجسيد، احتاطت الحكمة الإسلامية لذلك فقررت أن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك كنه الخالق مهما بلغ من النضج، وحصّل من المعرفة، فقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴾[1].

وقال النبى ﷺ: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم»، أى أن الكائنات العلوية المجردة عن المادة، لتطلب معرفته كما تطلبونها أنتم، فهم وأنتم سواء فى الجهل بكنهه.

فالمتأمل فى هذا الأصل الأولى للفلسفة، والأصل الأولى للحكمة الإسلامية، يجد الفرق شاسعاً بينهما، فالأولى جعلت معتمدها العقل الحواسى المحدود، فقررت ما قررته فى دائرته، والثانية وجدت أن هذه الحدود لا تتسع لشمول ما ليس فى مقدورها إدراكه، فردعت العقل عن الحوم حول هذه المدارك فى غير تعطيل، فكانت أحكم وأجدر بالخلود منها. وهذا بدهى لا يحتاج إلى دليل.

رأى أفلاطون وأرسطو أن تعليل الوجود دون افتراض وجود خالق مما لا يقبله العقل، فقررا وجوده، ولكنهما نظرا فى الوجود فوجدا فيه مادة مؤلفة من عناصر كثيفة، وهذه العناصر مهما لطفت ولتكن غازية، مؤلفة من ذرات صلبة فعزّ عليهما بمقتضى العقل الحواسى أن يحكما بأنها نشأت من الخالق اللطيف المنزّه عن المادية؛ فلما ضاقت حيلتهما زعما بأن المادة لابد أن تكون أزلية مثل

---

(١) طه : ١١٠

الخالق. ثم لما أحرجهما أن الكائنات ذات أشكال متعددة، وأنه مما لايعقل أن الخالق شكلها بيده وهو منزّه عن الجسمية، وجد أفلاطون مخرجاً من ذلك باختراع المثل، جمع مثال، وجاراه تلميذه أرسطو فأبدل لفظ المثل بكلمة الصورة. فيرى القارىء من كل هذا أن طابع العقل الحواسى ظاهر فى جميع هذه الأقوال. وغاب عنهما أن العقل الذى شايعاه إلى هذا الحد لا يسيغ وجود مادة مشوشة بلا موجد.

فإن قلت ألم يقررا وجود خالق دون موجد، فكيف يعز عليهما افتراض وجود مادة دون موجد كذلك؟

قلنا يوجد فرق كبير بين الأمرين، فإن الوجود فى تناسق أجزائه، وتكافل كائناته، وما يشاهد فيها من الإبداع والإحكام، يضطر العقل إلى القول بضرورة وجود حكمة عالية دبرته هذا التدبير المحكم، ولكن العقل لا يجد مسوغاً لافتراض وجود مادة مشوشة دون موجد أوجدها من العدم، ولا وجود قوالب أو صور أزلية لكائناتها.

ولو كان أفلاطون وأرسطو موجودين فى هذا العصر، ورأيا بالتجربة أن المادة مهما كانت صلبة تنحل إلى قوة، لما اضطرا لافتراض وجودها مساوية للخالق فى الأزلية، ولقالا بوجود الخالق وحده، ولم يضطرا كذلك لافتراض وجود المُثُل والصور أزلياً، لأنه ما دام قد ثبت أن المادة لا وجود لها إلا بسبب سرعة الحركة فى القوة، فإرادة الخالق تكفى فى تعليل حدوثها وتشكلها.

والذى نلاحظه ويلاحظه كل ناظر فى الفلسفة اليونانية وغيرها، أنها تقرر المسائل الكونية الكبرى بلهجة التأكيد والجزم، وتعتبر تخالفها وجوهَ نزاع شديد بينها وبين غيرها، كأن واضعيها حضروا خلق العالم فهم يصدُرون عن مشاهدات عيانية.

والحكمة الإسلامية تخالفهم فى ذلك، وتقرر أن أمر بدء الخليقة فوق متناول العلم، وتبكت الذين يتطفلون على هذا الأمر الجلل الذى إن كتب له أن يُكشف فلا يكون ذلك إلا بعد أن يبلغ العلم حده الأقصى. قال تعالى:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1].

الروح الإنسانية في الحكمة الإسلامية:

قال أفلاطون: النفس الإنسانية قوة كانت موجودة قبل أن تظهر فى العالم المحسوس، وكانت متمتعة بالإلمام بجميع المعارف، ولكنها لما تتصل بالجسد تنسى جميع ما تعلمه، ولاتحصل عليه إلا يسيرًا يسيرًا بالتعلم، والاحتكاك بالأمور الحيوية، وإعمال العقل والفكر. فالتعلم فى نظره هو التذكر، والموت هو الرجوع إلى الحالة التى كانت عليها الروح قبل دخولها فى الجسد، وهى إما أن ترجع إلى نعيم أو عذاب على حسب ما قدمت من عمل.

نقول: هذه نظرية لا يمكن التسليم بها إلا من طريق الإيمان المجرد من الدليل العلمى. فكيف كانت الروح موجودة قبل أن يوجد جسدها؟ وكيف كانت متجلية بجميع المعارف؟ ولماذا تفقد هذه المعارف لما تحل بالجسد؟ هل للجسد المؤلف من ذرات العالم السفلى قوة على طمس إشراقات العالم العلوى؟

إن أفلاطون لما شارف مسألة الروح، بدل أن يرجح وجودها، ويقول عن أصلها وخصائصها لا أدرى، ساق كل هذه الأقوال عنها بغير دليل.

أما أرسطو فقال:

الإنسان ككل الموجودات مركب من مادة وصورة، فالجسم هو المادة والنفس هى الصورة التى يتشكل بها الجسم ويحيا، ولذلك لاتنفصل عن الجسم لأنها قوته الفعالة!

والنفوس فى نظره ثلاثة: نفس نباتية وهى مادة الحياة، ونفس إحساسية ومن صفاتها الإدراك والتخيل والتشهى والميول الغريزية، وهى مشركة بين الحيوان والإنسان، ونفس مفكرة عاقلة وهى خاصة بالإنسان تصدر عنها أعماله العقلية، وهذه النفس التى تخلد.

---

(١) الكهف: ٥١.

المادة والصورة عند أرسطو أزليان وأبديان، وهو أمر غير معقول كما قدمنا، وأشد منه بعداً عن العقل تقريره بأن الصورة هى نفس الإنسان، فلو مكث الإنسان ألف سنة يعرض لهذه النظرية، ويحاول أن يفهمها على وجه مرض، لما آل أمره إلى شيء غير إضاعة وقته سدى. وقد أضاع قوم أوقاتهم فى مثل هذه الأمور شرحاً وتلخيصاً ودفاعاً، ومضوا ومضت معهم هذه الفلسفة! أفليس الذين امتنعوا بادىء ذى بدء عن الاشتغال بها قد وفقوا إلى الصواب؟

أما الحكمة الإسلامية فتقرر أن للإنسان روحاً من إبداعيات الخالق، هى مصدر حركاته الجسدية، وأعماله الحيوية، وأحكامه العقلية، وهى خالدة فى عالم وراء هذا العالم فى حالة تناسب ما عملته فى حياتها الدنيا.

ولما كان أمر الروح الإنسانية قد شغل الناس كافة فى كل زمان ومكان، فقد سأل بعض المسلمين رسول الله عنها، وقيل سألوه بإيعاز من أهل الكتاب، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]؛ أى إنها من إبداعياته، ثم صرح لهم بأن حالتهم العلمية لا تسمح بأن يكاشفوا فى هذا الأمر الجلل بأكثر من هذا. فانظر كيف حفظت الحكمة الإسلامية للعلم حقه فى كشف هذه المساتير، وكان لم يبلغ بعد أوجه الأعلى فيتولى ذلك، وطالبت الآخذين بها بأن يطلبوه ليهديهم إلى القول الفصل فى كل ما يرجون معرفته من حقائق علوية وكونية.

فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[3].

---

(١) الإسراء : ٨٥
(٢) طه : ١١٤
(٣) فصلت : ٥٣

فالحكمة الإسلامية بهذا النص الصريح أساسها العلم الثابت المحقق، لا الظن والفكر المجرد، كما هو شأن الفلسفة اليونانية وغيرها، وهذا طراز جديد من الحكمة لم يتطور إلى شكل فلسفة إلا فى القرن التاسع عشر تحت اسم الفلسفة الوضعية Positivisme.

نعم إن الحكمة الإسلامية أقرت العقائد الأساسية للديانات، وهى وجود الملائكة والنفس والوحى والنبوة والحياة الأخرى والثواب والعقاب، وفيها كما لا يخفى ما لا يستطاع أن يقام عليه دليل علمى من الطراز الذى تتطلبه الحكمة الإسلامية؛ وعذرها فى ذلك أن هذه العقائد تشترك فيها الأديان كافة، وتدين لها من طريق الإيمان الموروث، وأن دليلها العلمى موكول إلى المستقبل حين تتمرد العقول على الأدلة الوجدانية، وتتطلب الحجج الحسية؛ وحينذاك يتولى قيّم الوجود إقناعها بما يفتحه عليها من الدلائل، كما حدث فى هذا العصر من ثبوت وجود الروح والوحى والحياة الآخرة بالأدلة العلمية، مما ألمنا به فى مقالاتنا الكثيرة فى هذه المجلة تحت عنوان معترك الفلسفتين.

والذى ينظر فى هذا الأمر بإنصاف يجد أن ما جرت عليه الحكمة الإسلامية هو أفضل ما يمكن أن يكون. فما دام إجماع العالم كان منعقداً على صحة هذه العقائد الرئيسية، فيكون مما لا ضرورة له إثارة شكوك لاوجود لها إلا فى رءوس تكاد تكون معدودة. ومع ذلك فلم تهمل أمرها الحكمة الإسلامية، فآتتها بما هى أهل له من الأدلة العقلية.

فآتت الذين كانوا ينكرون وجود الخالق بأدلة عقلية. فقال تعالى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾(٢).

وجاءت للذين كانوا ينكرون البعث بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا

(١) إبراهيم : ١٠
(٢) الطور : ٣٥

وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ (أى فيحركونها تعجبا وسخرية) رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾(١).

ووافت الذين كانوا ينكرون الوحى وقربته إلى عقولهم بمثل انتزعته من عالم الحيوانات لا يمكن نكرانه، وهو فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

فإذا كان وحى الخالق إلى الحيوانات ظاهراً محسوساً، فوحيه إلى النوع الإنسانى أولى وخاصة قبل بلوغه سن الرشد.

وقد أقامت الحكمة نفسها حارسة على هذه العقائد حتى لاتتسرب من ناحيتها أية فوضى إلى العقلية الحازمة للمسلمين، فنهت عن كل تأويل لها تدعو إليه شهوة تأملية، أو مغالاة دينية، مما دعا الأمم فى عصور التاريخ إلى الخروج بسببها إلى باحات الخيالات، والاغراق فيها باسم الدين. وكان السياج الفولاذى الذى وضعته الحكمة الإسلامية ضد هذه النزعة الضارة إكثارها من التنبيه بعدم إفساد تلك العقائد بالتأويلات، ولايصرفها إلى أكثر مما تؤدى إليه من المعانى.

وقد نزلت آية بسبب التأويل فى قوله تعالى فى حق عيسى عليه السلام: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(٣).

---

(١) الإسراء: ٤٩، ٥٠، ٥١.
(٢) النحل: ٦٨، ٦٩.
(٣) النساء: ١٧١.

تصور مذهب الحكمة الإسلامية أوضح تمثيل، وهى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى (أى محتملات لا يتضح معناها) قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

وقد اختص الإسلام بأصل لم تكلف به أمة من قبل، باعتبار أنه دين آخر الزمان حيث تسود دولة العلم، ويعلو سلطان الدليل، وتتشبع النفوس بمبدأ استقلال الضمائر، وهذا الأصل من الحكمة الإسلامية هو أن كل مسلم مكلف بإقامة الدليل على ما يعتقده على قدر استطاعته، وأن الإيمان التقليدى غير مقبول.

بهدا الأصل أوجدت الحكمة الإسلامية فى قلوب أهلها مناعة ضد تسرب الدعايات إليها، لأنه بينما يعتمد أصحاب تلك الدعايات على عاطفة الإيمان فى المدعوين، يتطلب المسلمون منهم الدليل، وأين هو مما يدعون؟

(١) آل عمران: ٧.

(مذهب الحكمة الإسلامية)[1]
في الحياة والأخلاق

لاننكر أن الفلسفة اليونانية ثرية فى الأصول المرقية للحياة البشرية، وفيما يرفع مستوى الإنسانية عن الحيوانية، ولكنها لم تبلغ شأو الحكمة الإسلامية فى ذلك، ولم تصل إلى بعض ما وصلت إليه تلك الحكمة من تطوير الشعب الذى نشأت بين ظهرانيه، وشعوب كثيرة أخرى اتصلت به، ولا تزال تعمل فى نفوس الأفراد والجماعات إلى اليوم.

ذلك لأن الفلسفة اليونانية اعتمدت على مجرد قوى التفكير والنظر؛ والدائرون فى تيار هذه القوى عدد محصور من كل أمة، ولكن الحكمة الإسلامية اعتمدت على الفطرة الإنسانية، وهى واحدة فى الناس أجمع، وجعلت قوى التفكير والنظر خادمة لها، ومعينة عليها.

الحكمة الإسلامية لم تتخذ لها مدرسة كمدرسة أفلاطون أو مدرسة أرسطو، ولم تلتزم ما التزمه أهل الفلسفة من الحدود العلمية، ولكنها نشرت نفسها فى الجو الطلق الذى لا يحد بحد، وهى ليست بحاجة إلى التدليل عليها، بأكثر من الإشارة إليها.

طالبت العالم بإقامة فطرة الله مجردة من كل ما عداها، حتى المقررات العلمية، وحتى المعتقدات الدينية والآداب النفسية والاجتماعية.

ذلك لأنها أهدى هاد للإنسان إلى الحق الذى ليس فوقه مرتقى، وإلى المثل العليا التى ليس وراءها مذهب، وإنما يفسد الإنسان ثمرات الفطرة فيه، بما

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، ص ٢٨٩.

يتولاها به من الشرح والتأويل والقياس والتشبيه، ولم يزل بها حتى يجعلها ممثلة لدرجة ثقافته التى هو عليها، فيقع فى الوثنية، وفى الرجعية، ولا يزال يضطرب فيما يورط نفسه فيه من ذلك حتى يصل إلى ما وصل إليه الفلاسفة الماديون، وهو أن الدين عدو العلم، وأنه والعقل نقيضان لا يجتمعان.

ولو كان الأمر اقتصر على الدين، لقلنا إن للدين رباً يحميه، ولكن تيار الفلسفة لم يزل يجرف أمام العقلية الإنسانية الحدود، حتى اجتاز بها منطقة الآداب النفسية المقررة، والاعتبارات الاجتماعية المتفق عليها؛ فأنكرت كل ماأثبته مؤسسوها الأولون من أصول العقائد وأسس الأخلاق، وقواعد الآداب، مدعية أن كل ما جاء به الفلاسفة الأولون إنما حداهم إليه قلة مادتهم العلمية، وقصر نظرهم فى الشئون الاجتماعية. فأنت ترى أن آخر الفلسفة ينقض أولها، وممثليها من الناحيتين يدعون أنهم هم الواصلون، وأن من عداهم هم الجامدون المقطوعون.

ولكن الحكمة الإسلامية التى اعتمدت على الفطرة لم تنته إلى هذا المصير، لأن الفطرة تعلو على جميع الاعتبارات، ولا تتأثر باختلاف التعاليم، فإذا تجردت من كل ما لابسها من أهواء وأوهام وتعاليم، كانت أهدى للإنسان فى ظلمات الحياة، ومشتبكات السبل، من أقوم التعاليم الإنسانية، وأكثرها تأثيراً فى النفوس.

فما هو الوازع الذى يشعر به الإنسان من إلمامه بقول أفلاطون: للنفس قوى ثلاث: النفس العاقلة ومقرها الرأس، والنفس الغضبية أو السبعية وموطنها القلب، والنفس الشهوانية أو البهيمية، ومركزها البطن. الخ؛ أو من حفظه نظرية أرسطو، ومؤداها: أن النفوس ثلاثة: نفس نباتية وهى مادة الحياة، ونفس إحساسية وما يتعلق بها من إدراك وتذكر وتخيل وشهوات وميول وعواطف، وهى مشتركة بين الحيوان والإنسان، ونفس مفكرة عاقلة وهى خاصة بالإنسان؛ قلنا ما هو الوازع الذى يشعر به الإنسان من إلمامه بهذين القولين، فيكفه عن الإغراق فى الشهوات، ويأخذ بيده لاكتساب الكمالات؟

ولكن السبيل الذى سلكته الحكمة الإسلامية باعتمادها على تجريد الفطرة الإنسانية مما ران عليها من أعراض الحياة الأرضية، قد دل بشدة تأثيره فى النفوس، وقوة تحكمه فى الميول على أنه الطريق السوى لتخليص النوع البشرى من بقايا الصفات الحيوانية، والغرائز البهيمية، وإثارة القوة العظيمة المختزنة فى روحه لدفعه إلى التقدم، واجتياز ما يصادفه من عقبات.

والذى يتأمل فيما عالجت به الحكمة الإسلامية الفطرة البشرية، يدهش من هذه العناية الفائقة التى لم يعرها الفلاسفة، متقدموهم ومتأخروهم بعض هذه العناية حتى أنه قرر أن الدين هو هذه الفطرة نفسها.

ونحن قبل أن نسترسل فى هذا الباب نرى أن تأتى بكلمة تمهيدية لتجلية أمر الفطرة:

إن الخالق سبحانه خلق الأنواع الحيوانية، وبث فى كل نوع منها الميول الضرورية لحياته، والمناعات اللازمة لبقائه، والأخلاق المناسبة لسعادته؛ وقد فطره على كل ذلك من يوم وجوده على أكمل الحالات، حتى لو قطعت حيواناً صغيراً عن أبويه، وتوليته بالتربية كما يُفعل بالهررة والكلاب، لنشأ على ما كان عليه أوائله. والإنسان وهو أكرم الخليقة وسيدها لايُعقل أن يكون الخالق قد حرمه من الأخلاق والميول الفطرية التى تصلحه، وتوصله إلى غاياته البعيدة من أوسع الطرق وآمنها.

ولكن لابتناء أمر الإنسان على التفكير والنظر والاستدلال، وقد خلق متحلياً بهذه القوى، وكتب له أن يصل بها إلى الأوج الأعلى، فقد وُجد على الأرض ساذجاً فاقداً لكل ما يقوّمه، إلا ما تهديه إليه الحاجات الجسدية من تلمس المأكل والمشرب والمأوى. وهو فى تلك الحالة إن عسف أو عتا أو تجاوز الحدود فى كل ما يفعل، فلا يقال إنه يفعل ذلك لأنه مطبوع على نحائز وحشية، ولكن يجب أن يقال إنه يأتى تلك الوحشيات مدفوعاً بما يشعر به من آلام الحاجة، وبما هو عليه من الذهول فى مضطرب الحياة. أما ما طُبع عليه من

سجايا الخير، وعوامل الارتقاء فكل ذلك كامن فى جبلته ينتظر العوامل التى تثيره وتبرزه، وتجعله بحيث يستخدمه فى الانتقال إلى مراتب أخرى من العظمة الإنسانية.

والآن نقول: إننا بقولنا فى مقدمة هذه المقالة إن الإسلام عوّل على الفطرة، أردنا بها هذه الفطرة السليمة المودعة فى صميم الإنسان، والتى تظهر لديه رويداً رويداً، فتقوّم من عوجه وتوصله إلى أرقى درجات الكمال.

وقد عنى الإسلام بتجريد الفطرة عناية فائقة، فإنه قبل كل شىء قرر أن الدين الحق هو الفطرة الإنسانية خالصة من كل شائبة بشرية، فقال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (أى مائلا عن العقائد الزائغة) فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وشرح النبى ﷺ هذه الحالة فقال هى أن يكون الإنسان من صفاء الذهن من كل صورة على مثل الحالة التى يكون عليها الطفل الناعم ساعة ميلاده، وإليك نص قوله: ﴿ **كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** ﴾.

أى إنهما هما اللذان يؤتيانه بالصور الذهنية على مافيها من منافاة الحقائق فيتلقاها عنهم.

وقد تفرد الإسلام بتجريد الفطرة الإنسانية إلى حد أنه اعتبرها أرقى غايات التدين، فهو يقصد إلى أن ما فى هذه الفطرة من الشعور الطبيعى العالى بعظمة الوجود، وما يؤديه ذلك إليه من الإخبات للقدرة التى أبدعته، وما وراء ذلك مما غرس فى تلك الفطرة من استحسان الحسن واستقباح القبيح، والإحساس بالعدل الطبيعى المطلق، وبوجوه الفضائل على إطلاقها، كل هذا مغروس فى

---

(١) الروم: ٣٠.

جبلته، وجدير بأن يؤديه إلى أرقى ما يمكن أن يبلغه الدين الحق من المراتب العالية من الناحيتين الأدبية والمادية، إذا جرده من التعاليم التى يتلقاها من أبويه.

هذا إيمان عظيم بسمو الفطرة الإنسانية وبأنها مبثوث فيها كل خير وسمو قُدر للإنسانية أن تصل إليه لو تركت وشأنها تتطور على مقتضى السنن الطبيعية. ولكن هيهات! فإن الناس يلقنون أبناءهم كل ما هم عليه من عقائد ووساوس وأوهام، ويدربونهم على كل ما نشأوا عليه من عادات ووجهات نظر واستنتاج واستدلال، حتى وقع الناس فى أشد الخلاف، وعقولهم واحدة، وفطرهم متشابهة، مما يدل على أن البلاء جاءهم من ناحية التعاليم سواء أكانت دينية أم فلسفية.

قد يقول قائل: إذا كانت الفطرة خير هاد للإنسان إلى أقوم سبل الحياة، فهلا نشأت أمة واحدة على هذه السنة، فكانت مثلاً لغيرها فى العالمين؟

نقول: كيف يكون ذلك دون أن يدرك الناس هذا الاكتشاف الخطير ويدونوه على صورة مذهب؟ وقد أراد الله أن تكون الحكمة الإسلامية هى أول من يكتشفه ويشيعه فى الناس، ويجرون على سنته، فيجنون منه مالا كان يتصور حدوثه من الانتقالات الأدبية فى أمة كانت تعتبر أبعد الأمم عن التطور، فتصبح به مثلا أعلى فى كل مظهر من مظاهر السمو الأدبى.

والتعويل على مقتضى الفطرة مبدأ نشأ حديثاً فى التربية والتعليم والفلسفة والطب والتشريع، فكانت له نتائج باهرة فى هذه الشئون، وقد سبق إليه الإسلام بأكثر من ألف سنة.

عولت الحكمة الإسلامية على الفطرة، وأمرت بإقامتها للتفرقة بين الحق والباطل، وبين الحسن والقبيح وبين النافع والضار، وبين ما يؤدى إلى التطور ومايؤدى إلى الجمود. ولكن كيف يتم لها ذلك وتلك الفطرة التى فطر الله

الإنسانية عليها، وعلق نجاتها على إقامتها، قد كسفتها العادات الوراثية، والتقاليد الجاهلية الخرافية، حتى جعلتها كأن لم تكن؟

لا جرم أن العمل على تخليص الفطرة السليمة من كل هذه الأعراض، يعتبر من الأعمال البعيدة الغور فى تقويم النفسية الإنسانية، وهو يمثل أكبر المعجزات الخالدة للإسلام، ويفسر ما كثر تردده فى الكتاب، من الدعوة للنظر والاعتبار فى الكون والكونيات، ومن إيراد الأضداد والمقارنة بينها، ومن ذكر أيام الأمم، ومن ضرب الأمثال، ومن تحقير الأوهام والأهواء والتشهير بالظنون والخيالات الخ؛ مما يكشط عن الفطرة ما ران عليها من هذه الأقذاء، ويعد الذوق لتقدير الأشياء ويهيىء العقل للنظر الصحيح فى مختلف الآراء، ويرفع ما سدل على عاطفة حب الجمال المعنوى من الأستار؛ فهذا كله عمل يقل فيه أن تصفه بالجلال، ولايسمح الإنسان لنفسه أن يقارنه بغيره ولو من بعيد، إذ لا يوجد له فى تاريخ الجماعات مثيل. فبينما لم تستطع أكبر مذاهب الفلسفة اليونانية، أن تنشىء جيلاً من اليونانيين يرتقون عن الوثنية إلى ملة أقرب إلى المقررات الفلسفية منها، أعدّ الإسلام بأسلوبه الذى قررناه، أمة كانت أبعد الأمم استعصاء على الإصلاح، لأن تلعب دوراً فى العالم لم يتسن مثله لأمة قبلها ولا بعدها، أليس هذا يدل بمثال محسوس على سمو الحكمة الإسلامية، فى إصلاح النفوس على جميع المذاهب الفلسفية.

مذهب الحكمة الإسلامية[1]
في روابط الاجتماع

الاجتماع كالبناء، وإنما الفرق بينهما أن الأول تحتاج لبناته إلى ملاط تتماسك به، وأن الثانى يستدعى وجود روابط أدبية تؤلف بين آحاده.

وقد وجدت هذه الروابط الاجتماعية فى أول أدوار الاجتماع على حالة من السذاجة تناسب الحالة العقلية والنفسية للجماعة. وكان من أكبر الدواعى إليها الحاجة المعاشية تحصيلاً للقوت، ودفاعاً عن الحوزة ضد الحيوانات المفترسة، وصد المغيرين عليها من الجماعات المجاورة. وكان المجتمعون كلما ارتقوا فى الشعور وفى المعرفة زادت الروابط التى بينهم تلطفا وتركبا، حتى بلغت الإنسانية شأواً قصياً من المدنية. من هنا نشأت حاجة ماسة إلى وجود علماء الاجتماع ليتعرفوا سلامة هذه الروابط واعتلالها، وليدرأوا أسباب تفككها وأسباب توثقها، حرصاً على بنية الاجتماع من الانحلال.

ولما نشأ الإسلام وجد أمماً متمدنة كالفرس والرومان مترابطة ترابطاً قوياً سمح لها بالحياة مستقلة، وبالقيام بالفتوحات لاستعباد الأمم.

على أن هذه الروابط لم تكن قائمة على الحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات، فكانت كل أمة تعتقد أنها أرقى من سواها وأحق بالبقاء وبالسيادة من سائرها، وكانت تثور بينها منازعات ترتكب فيها أشد المنكرات بالمغلوبين من تقتيل أسراهم، والتمثيل بهم؛ ومن نهب ممتلكاتهم وهدم مدنهم، وتجريدهم من جميع الحقوق المدنية، ووضعهم والحيوانات فى مستوى واحد.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ ، ص ٣٣٧.

ولم تتجرد الفلسفة اليونانية من مثل هذا العسف، فكان يرى فلاسفتهم أن الجنس اليونانى أرقى الأجناس البشرية، وأن الحقوق المدنية لا يصح أن يتساوى فيها الأفراد، بل زاد أرسطو فارتأى أن يحرم الصناع والزراع والعبيد من الحقوق المدنية لحقارة ما يقومون به من الخدم فى نظره.

والظاهر أن الفلسفة اليونانية لم تعن العناية الكافية بمسألة الرّبُط الاجتماعية على خطرها، فخبط فيها فلاسفتهم؛ ولم يسلم من هذا الخبط أفلاطون نفسه، فارتأى فى كتابه (الجمهورية) وجوب حذف حق الملكية الفردية، وحذف الأسرة أيضاً، فجعل المقتنيات والنساء فى جمهوريته مشاعة بين الكافة، وناط تربية الأولاد بالحكومة كما ناط بها توزيع الأموال إلخ.

فى وسط هذه الربط الاجتماعية المشوشة، ظهر الإسلام فأدهش العالم أجمع بقوة تماسك آحاده، وتغلبه على قلة أتباعه على جماعات تفوقهم عُدداً وعَدداً، ولم يفطنوا إلى أن هذا التغلب كان بسبب شدة التماسك الذى أكسبهم إياها سمو رابطتهم الاجتماعية على جميع الروابط المعروفة.

ولقد أثبت العلم أن روابط الاجتماع نفسها تتنازع الحياة كما تتنازعها الأحياء، فلايقدّرالنصروالبقاء إلا للأكمل منها، ويتلاشى الضعيف الملتاث منها بالأدواء، حتى لا يبقى منها إلا الأصلح المحقق لناموس الارتقاء.

لم يبق أمامنا إلا ما نفسر به سبب مناعة المجتمع الإسلامى، واستعصائه على جميع المحللات التى صادفها فى اصطدامه بالمجتمعات العالمية، وتغلبه عليها. وهذا التفسير هو أن الروابط الإسلامية بين الآحاد كانت أرقى من جميع روابط الجماعات التى نازعتها الحياة ، وأن تلك الروابط كانت تستمد وجودها من أعلى المبادىء الاجتماعية، التى جاءت بها الحكمة الإسلامية.

فالتنازع بين المسلمين وبين تلك الجماعات كان فى حقيقته تنازعاً بين القوى الادبية لكل منهما، تحقيقاً لناموس الانتخاب الطبيعى الذى نتيجته أن يكون الفوز للأصلح، كما جاء فى الكتاب الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

(١) الأنبياء : ١٠٥.

أدهش الناس جميعاً أن تقوم أمة فى أبعد بقاع الأرض عن العمران فتلقى بنفسها فى معمعان المزاحمات الاجتماعية، وتجول فى الأرض جولات تحصل بها سيادة العالم كله، ولم يتم لها هذا جميعه إلا بعد أن احتكت، وهى فى أول أدوار الاجتماع، بأمم عريقة فيه، وانتزعت منها السؤدد والسلطان.

أدهش الناس هذا فأخذ نقدة التاريخ يعللونه بضروب من العلل؛ فمنهم من زعم أن هذه النهضة غير المتوقعة تنحصر فى أن الإسلام أغرى ذويه بأن من يمت منهم شهيداً فى الحرب يرث الجنة؛ ومنهم من تخيل أن العلة كانت فى تفكك روابط الأمم المعاصرة للمسلمين، ومنها أمتا الفرس والرومان؛ ويغيب عنهم كلهم أن هذا التبسط فى الفتوحات كان يلازمه أرتقاء يناسبه فى جميع المعارف البشرية، ومختلف الصنائع والفنون، ويسايره توسع فى العمران، واستبحار فى المدينة الفاضلة؛ وكل هذا يبين أن ليست الأسباب المتقدمة هى التى جعلت الإسلام ينتشر فى بقاع الأرض، ويعم هذه الأمم القوية الروابط، ويحتل من نفوسها مكانة سامية لم تصل إليها أمة أخرى، حتى أن الأمة الفارسية قبلت الإسلام مختارة على ضؤولة الجزية التى ضربت عليها، وعلى عدم العدوان عليها باسم الدين، مما لم يتجرد منه الأوروبيون حين فتحوا القارة الأمريكية فى السنين الأخيرة للقرن الخامس عشر، أى بعد الإسلام بنحو ثمانية قرون.

ودليلنا على فساد هذه التعليلات أن الدوافع على هذه النهضة لو كانت هى المغريات على الجهاد وحدها، لكان قصارى أمر المجتمع الإسلامى الأول أن يبلغ مداه فى التوسع، ثم يتراجع ويمحى أثره ككل نهضة حربية فى الأرض، وليس تاريخ التوسعات الحربية لبختنصر البابلى والإسكندر المقدونى، وجنكيز خان المغولى، وتيمورلنك من أحفاده، ونابليون الفرنسى، مما يغرب عن الأذهان.

نعم إن الرومانيين قاموا بما يقرب من الفتوحات الإسلامية، حتى دانت لهم

معظم الممالك، ولكن كان ذلك فى خلال ثمانية قرون، لا فى ثمانين سنة، كما حدث للمسلمين بواسطة الإسلام؛ ومع هذا الفارق العظيم أيضاً، وهو أن الفتوح الرومانية كانت تمثل العسف بجميع مظاهره، فكانت الشعوب والأمم تعامل معاملة الأرقاء. ولكن الفتوح الإسلامية كانت خيراً وبركة على المقهورين، وكان مبدأ المساواة مراعى بين الكافة إلى أقصى حدوده، وأخص معانيه. حتى كان المقهور يخاصم قاهره مهما كان عظيماً إلى القاضى المسلم فيقتص له منه، غير معتد بشىء من تخالف العقائد، ولا تباين الدرجات.

وأما ما يتخيله معللو توسع المسلمين فى الفتوحات من أن السبب كان تفكك روابط الأمم الكبرى على عهدهم الأول، فغير معقول أصلاً، فإن الدولتين اللتين كانتا تسودان العالم إذ ذاك، وهما دولتا الفرس والرومان، كانتا فيما بينهما فى منازعات شديدة مستمرة، وكانتا حاصلتين على مقوماتهما الاجتماعية كاملة، وإن كانتا فى حالة تدهور أدبى نسبى. فكانتا تشتبكان فى حروب بينهما، ولم تقو إحداهما على التغلب نهائيا على الأخرى، وكان لكل منهما جيوش جرارة، وقادة محنكون، ونظام قائم، فكانت تغلب إحدهما الأخرى تارة، وتنهزم تارة أخرى، ولكن إحداهما لم يظهر عليها أثر الانحلال الاجتماعى فى جميع هذا المعارك. ولما ظهر الإسلام وأدته الشئون الاجتماعية للدخول معهما فى حرب، قامت كل منهما بالدفاع عن نفسها جهد المستطاع، وكانت نتيجة ذلك أن انحلت إحداهما وهى فارس، ودخلت الإسلام مختارة، وانحسرت الأخرى عن ممالك مصر والشام وشمال إفريقيا، واضطرت لدفع الجزية للمسلمين، وهى دولة الرومان، وبقيت قائمة على نظامها إلى القرن السادس عشر، حتى أتم حلها الترك العثمانيون فى منتصف القرن الخامس عشر باحتلالهم القسطنطينية.

لم يبق أمامنا إلا تعليل واحد يمكن أن نفسر به مناعة المجتمع الإسلامى واستعصاءه على جميع المحللات التى صادفها فى اصطدامه بالمجتمعات العالمية، وتغلبه عليها.

هذا التعليل هو أن الروابط الإسلامية بين الآحاد، وبينهم وبين الجماعات التى تدين لهم، كانت تستمد وجودها من أعلى المبادىء الاجتماعية التى جاءت بها لهم الحكمة الإسلامية. فالتنازع بين الجماعة الإسلامية على قلة عددها، وبين الجماعات العالمية، كان فى حقيقته تنازعاً بين القوى الأدبية لكل منهما، تحقيقاً لناموس الانتخاب الطبيعى الذى مؤداه فوز الأصلح للبقاء.

كانت الروابط الاجتماعية للأمم مبنية على مبدأ التعاون فى الكفاح لتحصيل مقومات الحياة، ولو من طريق تجريد الأمم المجاورة من مقوماتها، والتغلب عليها وتسخيرها لمطالبها، والأخذ بطريقة العسف فى معاملتها، وكان أساس هذه الروابط الجنس واللون واللغة.

ولكن الروابط الإسلامية تأسست على أصول أدبية هى أرفع ما يصل إليه العقل من العدل المطلق، وهى:

(أولها) المساواة بين جميع الخلق: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح، فكلكم لآدم وآدم من تراب».

(ثانيها) أن التفاضل لا يبتنى على الفوارق الجنسية ولا الجسدية، ولا التفاوت فى الثروة، ولكن على الكمالات النفسية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1].

(ثالثها) أن القبائل والشعوب خلقت على الأرض لتتعارف جميعها وتتعاون، لا لتتناكر وتتناحر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[2].

(رابعها) تسويد العدل فى جميع المواقف ولو على النفس والأقربين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[3].

---

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) النساء: ١٣٥.

(خامسها) العمل على إعلاء كلمة الله فى الأرض، وهى الحق المطلق، والفضيلة الصحيحة.

هذه روابط جامعة تصلح لأن تجمع بين الأمم كافة، وتمحو ما بينها من أحقاد وثارات فى ظل أكمل الأصول، وأسمى المبادىء وهى نفسها دستور السلام العالمى الذى تنشده الأمم اليوم.

ولست فى حاجة أن أبين لك أن المجتمع الذى تكون راوبطه هذه الأصول والمبادىء، يتغلب على المجتمعات التى تنازعه الوجود، لأن الروح التى تسيطر على آحاده تستمد وجودها من غرائزهم المادية والروحية مجتمعة، لا من غريزة حفظ الذات فحسب.

هذا هو التعليل المعقول لنشوء المجتمع الإسلامى، وتغلبه على الجماعات الكبرى، وحلوله محلها فى الزعامة العامة فى الأرض.

وبعد فقل لى بربك: أمة لديها مثل هذه الثروة الحكمية، ماذا يرجى أن تأخذ عن الفلاسفة، وقد رأيت أماثلهم لا يقيمون لمبدأى الأخاء والمساواة العالميين وزناً، ومكانهما من صميم الحياة الإنسانية ما تعلم؟

الحكمة الإسلامية وما وراء الطبيعة[1]

قذف بالإنسان من عالم الغيب إلى عالم الطبيعة، وهو لو كان مثل الحيوان محدود القوى العقلية، ومقدراً عليه أن يعيش قانعا بما يقيم أوده من الحاجات المادية ثم يموت، لما كلف نفسه أن يبحث فى غير ما يجعل حياته حافلة بالمتع الجسدية ولاجاش بقلبه نزوع إلى الطموح لما وراء ذلك من الشؤون العلوية؛ فما ظنك به وقد اشتغل بها من يوم وجوده على الأرض، كما استدل على ذلك من علم الحفريات (الباليونتولوجيا) وجعله شغله الشاغل، وقدمه على كل ما عداه من شؤونه المادية، بل ضحاها له واعتبر ذلك أخص ما يجب عليه فى حياته الدنيوية.

فلتوفية هذه الحاجة النفسية فى الإنسان، شرعت له الأديان، فأذعن لها كل الإذعان، ولكنه لشدة تهيامه بكشف ما حجب عنه من الأسرار، لم يقف من تخيلاته عند حد، فأطلق لها العنان، فطوحت به إلى خزعبلات بحيث أصبح ما كانت تدين له أرقى أمم القدامى، أقاصيص بدهية البطلان.

ولما جاءت الفلسفة اليونانية، ورأت أن ما انتشر من العقائد لا يتناسب وكرامة العقول، رمت في دورها الأول، أي فى القرن السادس قبل المسيح، إلى تصحيح خطأ رجال الدين فجاءت بتعليلات فى نشوء الكون وقيامه تعتبر من السذاجة بمكان وضيع. وقد بينا ذلك فى مقالات لنا سبقت فى هذا الباب.

ولما جاء العصر الثاني للفلسفة في القرن الرابع قبل المسيح، وامتاز بظهور أفلاطون وأرسطو، وحاولا جهد الطاقة أن يضعا فلسفتهما على قرار مكين، لم

(١) مجلة الأزهر ـ السنة السادسة عشرة، ١٣٦٤هـ ، ص٣٣٩.

يوفقا إلي ذلك أيضاً، وجاءا بآراء بسطاها فى مقالاتنا السابقة على الخالق والروح والوجود والموجودات لا تحتمل النقد.

نعم إنهما قالا بوجود خالق حكيم، ولكنهما أشركا معه فى الوجود المادة ومثلها أو وصورها، على أنها أزلية فى درجة أزلية الخالق نفسه، وهذا مما تنفيه بداهة.

وقد جاءت القنبلة الذرية فنفت قدم المادة عملياً، فأصبح تأثيرها فى المذهب المادى أشد بما لايقدر من تأثيرها فى أعداء الديموقراطية فى الحرب الأخيرة، فتحطم بتأثير حل تماسك قوى الذرة كل قول بأزلية المادة، ولم يبق فى الوجود كله غير القوة وخلا الكون لتدبير قدرة أزلية تخلق ما نسميه مادة، وتؤلف بها من الكائنات الجامدة والحية ما نشاهده وندهش من تنوعه فى عالمنا الأرضى، وما لا نشاهده ولا نتخيله من الموجودات فى عوالم أخرى لا نهاية لها.

هنا يظهر خطأ الفلسفة اليونانية، وكل فلسفة سبقتها أو تلتها، فى ذهابها فى فهم المادة الفهم الذى نقضه العلم الطبيعى حديثاً نقضاً عملياً، وفى هذا الوقت نفسه تجلت الحكمة الإسلامية تجلياً باهراً بمذهبها فى وجود الخليقة، وببعدها عن اتباع الظنون والأوهام.

مذهب الحكمة الإسلامية فيما بعد الطبيعة

الطبيعة فى عرف العلماء المشتغلين بالنظر فى الوجود، هى مجموع الكائنات أى العالم كله معتبراً وحدة تدبرها قوى واحدة، ونواميس عامة تعمل فى أكبر الموجودات كما تعمل فى أصغرها، لايفلت من تدبيرها أصغر ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

فلما جاء الإنسان ودفعته قواه العقلية إلى تفهم ما يحيط به، اضطر إلى افتراض وجود مدبر فوق الطبيعة، وهنا أطلق العنان لأهوائه وأوهامه، وأتى بما لا يقبله عقل، ولا يمكن أن يسنده دليل، مما يناسب الدركة التى هو فيها من الجهل.

فلما نشأت الفلسفات فى الصين والهند ومصر وبابل وغيرها، كان مما شغل بال قادتها البحث فى أصل الوجود وقوام الموجودات، فكان ما حصلوه مناسباً

لدرجة معارفهم، وليس القارىء فى حاجة بعد هذا لأن نذكر له أن أساس تلك البحوث كان الخيال المحض.

وعقبتها الفلسفة اليونانية فى نحو القرن السادس قبل المسيح، فحدت من شططها كثيراً، وكانت العقول قد ارتقت بارتقاء العلوم، فجرت فى التحس من علم ما وراء الطبيعة على ما سمحت لها به قواها التصورية فى حدود معارفها الكونية، ولكنها لم تنج من الوقوع فى مزاعم هى أقرب إلى الخيالات الوهمية، منها إلى التقريرات الفلسفية، فذهب أشهرهم وهوأفلاطون إلى القول بوجود الأصل المادى ومُثُل الموجودات أزلياً مع الخالق على حد سُوى.

ولم يعف تلميذه أرسطو واضع علم ما وراء الطبيعة، عن مجال التخيلات أيضاً، فقال كما قال أستاذه بأن المادة الجامدة كانت موجودة من الأزل، ولكنه أبدل كلمة المثل بالصور.

وقال أرسطو أيضاً فى كتابه (الميتافيزيقا) أى علم ما بعد الطبيعة.

العالم قسمان سماوى وأرضى، أما السماوى فمتمتع بحركة دائرية صادرة عن الله مباشرة، والنجوم أزلية خالدة!، وهى مكونة من الأثير، ولذلك لا تقبل الفساد!

«وسماء النجوم الثوابت هى مقر الكون والحياة الكاملة والنظام الثابت. وهذه النجوم كائنات لايعتريها الهرم، حية حياة سعيدة، ودائبة على العمل دون كلال، وهى أقرب للألوهية من الأنسان»!

وأرسطو لايعترف بأن الخالق متولى الخليقة بالتدبير والتوجيه، وقد خالف فى ذلك أستاذه أفلاطون الذى كان يقول بأن الله وإن كان لم يخلق المادة فإنه اعتنى بها ودبرها!

هذه أوجه الفلسفات التى أثرت عن الأقدمين فى مسألة ما بعد الطبيعة، وهى

كما يرى القارىء مفككة متناقضة ولا تحتمل النقد، ناهيك أنه لم يبق لها فى اليوم من ممثل فى أية بقعة من بقاع الأرض.

* * *

أما الحكمة الإسلامية فقد قررت أن للكون خالقاً متصفاً بجميع صفات الكمال، ولكن العقل البشرى لا يستطيع معرفة كنهه، كما جاء فى الكتاب الكريم: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[1].

أبدع الوجود من عدم، ومنح جميع الكائنات كل ما به قوامها وبقاؤها، كما قال فى كتابه: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2].

والإسلام يتفق مع جميع البشر فى هذه العقيدة، ويزيد عنهم فى إبلاغ تنزيه الخالق إلى أقصى حدوده، تفادياً مما وقعت فيه الأمم كافة من إضافة مدركات وهمية إلى هذه العقيدة. وقد وضع المسلمون قاعدة حاسمة لضمان بقاء هذا التنزيه، فقالوا: « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك»؛ وليس بعد هذا رادع للشهوات العقلية عن الطموح إلى الكلام عن الذات الإلهية.

وقرر الإسلام أن للإنسان روحاً نسبها الخالق تشريفاً لها إلى نفسه، فقال: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[3].

وأنها تخلد بعد الموت فى عالم فوق هذا العالم يثاب فيه الإنسان على ما عمل من خير، ويعاقب على ما اجترح من سوء؛ وأن الله خلق ملائكة وهم أرواح مجردة عن المادة يصرفهم فيما يشاء من الشؤون؛ وإنه اتخذ رسلاً من البشر إلى الناس وأوحى إليهم كتباً ليهدوهم إلى أقوم سبل الحياة.

فهذه العقائد انعقد عليها إجماع البشر كافة فى كل زمان ومكان، ولكن الذى امتازت به الحكمة الإسلامية، هو ردع النفوس عن تناول هذه المقررات

(١) طه: ١١٠.
(٢) طه: ٥٠.
(٣) الحجر: ٢٩.

بالشروح والتأويلات، اعتماداً منها على أن العقل العادى، الذى يستمد معارفه من المحسوسات لا يستطيع أن يخوض فيها ويسلم من الخبط، كما حدث للفلسفة إذ تناولتها على هذا الوجه فأتت فيها بما لا يسيغه عقل فضلاً عن أن يقام عليه دليل.

ولما كانت الفطرة الإنسانية لا تستطيع أن تقف جامدة حيال أمور يهمها فهمها والتوسع فيها، أكثر مما يهمها أى شىء آخر، صرحت لها الحكمة الإسلامية بأن هذه الشؤون العلوية لا تخضع لسلطان العقل العادى، لأنها تتعلق بما فوق الطبيعة، ولا يمكن الوصول إليها وتحقيقها إلا باستخدام الحواس الباطنة، والاتصال بواسطتها بالأرواح المجردة، واستمداد تلك المعارف منها. ولم تشترط لبلوغ هذه الغاية ما يشترطه غيرها من ضرورة الانقطاع عن العالم الخارجى وسكنى الصوامع، وتمضية الحياة فى الوحدة والتقشف، بل هى تنهى عن ذلك، ولا تتقاضى السالك فى هذه الطريق إلا شيئاً واحداً، وهو الاستقامة والعمل بوصايا الشريعة من دوام طلب العلم، والتثبت فيه، وتحرى الحق فى كل قول وعمل، والأخذ بالأحسن من كل شىء، وتطهير القلب من كل نزغة شيطانية، ونزعة حيوانية وشهوة جاهلية، وإدامة النظر والتأمل فى مجريات الحياة؛ واستشراق النور من خلال الحوادث الوجودية، والإدمان على السير فى هذه الطريق دون تعجل للثمرات، ولاتهور فى المجاهدة، ولاتنطع فى المحاسبة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]. فهو لا يشترط فى الاتصال بالملائكة غير الاستقامة على الطريق؛ ومتى اتصل بهذه الأرواح المجردة، وهذا الاتصال على درجات شتى، انفتح أمامه طريق المعرفة، وشعر بعمل حواسه الباطنة، واتحد عقله العادى بعقله الباطن، وشعر بحقيقة الحياة، وتجلت له عظمتها، وتبينت له حكمة تكاليفها الروحية، وتبعاتها الدنيوية، وتخلص من دواعى الحيوانية،

(١) فصلت: ٣٠.

وتراأت له غايات سامية تغريه على إدمان المجاهدة، ولا يزال يتنقل فى درجات الترقى حتى يبلغ شأواً لم يدر فى خلد أشد الناس تفاؤلا بمصير الإنسانية.

وقد وعدت الحكمة الإسلامية ذويها بحصولهم على ثمرات جهادهم معجلة لامؤجلة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(١).

هذه سبيل الحكمة الإسلامية فى شؤون ما وراء الطبيعة، وفى أسلوب التحقق منها، وهى سبيل ترضى أشد الناس طماعية فى وجدان الدليل عليها. ولما كان الدليل عليها لا يمكن أن يكون كلامياً، بل أن يكون شهودياً محسوساً، فقد آتتك به فيما نهجته لك من تكاليف. ومع هذا فقد تنبأت عن مجىء عهد تنجلى فيه هذه الحقائق بحيث لا يستطيع أحد أن يتجاهلها، فقال تعالى: ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾(٢).

وصرح بما سيحققه العلم من صحة تلك الشئون العلوية حين يرتقى الإنسان فى سلم المعرفة، فتكون لديه بواسطة العلم نفسه، أدلة محسوسة عليها، كما هى الحال فى زماننا هذا فى مجال العلوم النفسية، وقد اعترفت بها جامعات كبيرة مثل كمبردج واكسفورد ويورك وغيرها، فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾(٣).

وهو ما عبر عنه أشهر علماء العالم الاستاذ (كاميل فلامريون) فقال فى كتابه (المجهول): «إن لدينا الآن من الأدلة على وجود العالم الروحانى مثل ما لدينا منها على وجود العالم المادى».

---

(١) العنكبوت: ٦٩.
(٢) الأنبياء: ٣٧.
(٣) فصلت: ٥٣.

نظرة علي كل ما تقدم[1]

أتينا فى السيرة المحمدية على كل مايجب أن يعرفه طالبها، وعلى كل ما ينبغى أن يصحبها من بحوث علمية وآراء فلسفية؛ وقد بقى علينا النظر فى تصرف أصحاب النبى ﷺ، لا لنجل لهم مبلغ احترامهم لتعاليم رسولهم فحسب، ولكن للاستدلال عملياً أيضاً على صحة ما ذهبنا إليه من أن التعاليم الإسلامية هى خير التعاليم التى تبنى الأمم، وتضمن لها جميع الحوافظ التى تستبقى وجودها، وكل العوامل التى تدفعها للتطور. ومن ناحية أخرى فإن هذه الدراسة وإن كانت تستدعى منا الإلمام بتاريخ الأمة الإسلامية فى عهدها الأول - وليس هذا مما يتناوله عنوان بحثنا - فإنها مع ذلك من مكملاته، لأنها تدل على مبلغ نجاح النبى ﷺ فى بث المبادىء التى أرسل بها؛ وهذه ناحية يتفاوت فيها المصلحون، وتقاس بها قواهم الروحية، وتؤيد صحة صلتهم بالشؤون العلوية.

بعث النبى ﷺ إلى الناس كافة، وهى مهمة لم يدعها إنسان من قبله فى أية بقعة من بقاع الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

فهل وفَّى محمد بهذه المهمة؟ وهل ما جاء به يصح أن تأخذ به الناس كافة؟

أما إنه وفَّى بهذه المهمة فهذا مما لا مشاحة فيه، فقد بعث وحيداً، لاأعوان

(١) مجلة الأزهر - السنة السادسة عشر، ١٣٦٤هـ، ص ٤١٧.

(٢) سبأ: ٢٨.

معه يشدون أزره، ولا مال لديه يستغوى به العامة، ولا سلطان له يستميل إليه به محبى الجاه والسؤدد، ولا أى عامل مادى من عوامل الإغراء والتسويل، فنجاحه فى دعوته يرجع إلى كفايته الشخصية لما ندب إليه، وإلى وفاء ما جاء به بحاجات النفوس، ومقومات الحياة. فإن آنست فيما آل أمر الصحابة إليه جماعة قوية الترابط، موحدة الوجهة والغاية، متجانسة الميول والعواطف، مطمئنة إلى ما انتهت إليه، ومستعدة لأن تبذل أنفسها وأموالها فى تأييد ماهى عليه، فإنما ترى فى الحقيقة أثراً مجسماً للدعوة الإسلامية، لم يشاركها فى تكوينه عامل من البيئة التى تعيش فيها، ولاباعث من حالة أدبية للإمم التى كانت تحيط بها، فهى صياغة الأصول الإسلامية جسداً وروحاً.

أقام محمد ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة بين ظهرانى أمته يدعوهم إلى الحق، ويقيمهم على صراطه، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١).

وكان نزل عليه قبل ذلك قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٢).

وقوله تقدس اسمه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٣).

ثم اختاره الله لجواره، فمضى تاركاً أمته وشأنها تتصرف فى شؤونها على ما رسمه كتابها، وسنة رسولها، حتى أنه لم يسم لها من يخلفه من كبار أصحابه.

---

(١) المائدة : ٣.

(٢) آل عمران : ١٤٤.

(٣) النور : ٥٥.

فاجأت قومه وفاته فأذهلتهم هنيهة، وكادت تفتنهم ولكن سرعان ما حفزتهم تعاليمه إلى العمل، فنهض أحدهم وهو أبو بكر، فرقى المنبر وخطبهم قائلا: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت»، ثم تلا قوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١).

فثاب إليهم صوابهم، وتركوا رسولهم مسجى فى حجرته، واجتمعوا تحت سقيفة أحدهم، وائتمروا فيما بينهم لتعيين من يخلفه، وهنالك تجلت هذه التعاليم فى أروع وجوهها، فما مضت غير ساعة تبادلوا فيها الآراء حتى انتهوا إلى رأى إجماعى بتعيين أبى بكر لخلافته، فكان هذا أجلى مظهر للوحدة الاجتماعية تتجلى على جماعة كانوا بالأمس أوزاعاً متعادين، يأكل بعضهم بعضاً. فإن قلنا لم يحدث ما يشبه هذا الحادث الجلل فى أية جماعة من جماعات العالم، فلسنا بمبالغين، وها هو تاريخ القبائل بين أيدينا، إن قلنا إن مثل هذه الوحدة لم تتم إلا فى قرون عديدة، ولاتتولد إلا تدريجياً تحت تأثير عوامل شتى.

ولما تمت بيعة أبى بكر قام فى الناس خطيباً، وقال:

«أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن صدفت فقومونى. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ له حقه، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله.

«لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل.

«أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.

«قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

نقول: المتأمل فى هذه الخطبة، وهى أول ما طرق آذان المسلمين من ذى سلطان بعد وفاة النبى ﷺ، يرى فيها أصول الديموقراطية ماثلة لا ينقصها شىء، وأين الأمم من الديموقراطية؛ خاصة الأمة العربية، فى ذلك العهد؟ فأما رياسة الحكومة على النحو الذى حدث من الاجتماع والتشاور فيمن هو أحق برياستها، ثم مبايعة الناس إياه بعد انتخابه، فهو إيذان صريح بأن السلطان للأمة لا لتقاليد مقررة، ولا لأوضاع موروثة. وعدم تعيين النبى ﷺ من يخلفه، أيّد هذا الحق للجماعة أعظم تأييد.

وقول أبى بكر فى خطبته: «فإن أحسنت فأعينونى، وأن صدفت فقومونى»، إشعار واضح بأن للأمة حق الإشراف على الحكومة، فتعين المحسن وتؤيده، وتقوم المعوج أو تعزله.

وفى قوله: «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم»، إعلان لا يقبل المماراة فى أن الحكومة الإسلامية ذات دستور مقرر، هو القرآن والسنة النبوية، قيد أبو بكر بالسير عليهما نفسه على رءوس الأشهاد، حتى أنه صرح بأن للأمة حق إقالة الحكومة إذا لم تقم بما يوجبه عليها الدستور. وهذه الالتزامات هى الأركان الثابتة للديموقراطية الصحيحة.

هذا المظهر الفذ الرائع لأول حكومة إسلامية تقوم على أنقاض جاهلية جهلاء، طفرة دون تطور تدريجى، يعتبر أمراً خارقاً للعادة، ليس له شبيه فى تاريخ الاجتماع البشرى، وحدوثه طفرة فى جماعة كانوا بالأمس القريب منقسمين إلى قبائل لا تجمع متفرقها رابطة من أى نوع كانت، يعد من الانقلابات الفجائية، التى تعجز عن إيجادها مجرد السنن الطبيعية، وتميل بالباحث إلى تطلّب عللها فى ذات التعاليم التى أوجبتها، وفى التربية الروحية التى قام بها من تولى أمر تلك الجماعة من أول تكونها.

فإذا قيل لا يستطيع أحد أن ينكر أن القرآن قد نص على أن تكون الحكومة (دستورية)، وأن يكون للأمة السلطان المطلق، وهى التى تهبه لمن تختاره من

خيرة رجالاتها، إلخ من أركان الديموقراطية، ولكنها لم تصنع الأداة الضرورية لتطبيق هذه الأصول، فلم تضع نظاماً للانتخابات البرلمانية لتمثيل إرادة الشعب، ولم تقرر تأليف وزارة توزع على أعضائها الأعباء الإدارية، إلى غير ذلك من لوازم هذا النظام الحكومى الراقى.

نقول إن هذا يرجع إلى قرب عهدها بالاجتماع وبالحكم، على أن الأمم الديموقراطية لم تتفق بعد، وقد مضى عليها فى الحكم الديمقراطى نحو مائة وخمسين سنة، على شكل هذه الأداة، فإن منها من لها مجلس نيابى واحد ومنها من لها مجلسان، ومنها من جعلت وزارتها مسئولة أمام مجلس نوابها، ومنها من جعلتها مسئولة أمام رئيس جمهوريتها، وغير ذلك من الخلافات التى لا معول عليها، ما دامت أركان الديموقراطية محترمة. إن الأمة الإسلامية لم تحرم فى عهد رسول الله ﷺ ولا فى عهد خلفائه من شكل تمثل فيه إرادة الأمة. فكان رسول الله يجمع المسلمين فى المسجد ويخطبهم فيما هو بسبيله، ويتقبل مشوراتهم ويعمل بها، حتى كان إذا تعارض رأيهم ورأيه أخذ برأيهم دون رأيه.

فهذا النوع من أخذ الآراء يكفى فى القيام بحق الديموقراطية، بل فيه تعميم الدعوة للأفراد كافة، لا للمنتخبين دون غيرهم، وكثيراً ما اتهمت الانتخابات حتى فى أرقى الأمم مدنية، فكان فى هذا الإطلاق لحضور أمور المسلمين العامة ضمان لكل فرد أن يبدى رأيه فى تلك الأمور لعدم انحصارها فى المنتخبين دون غيرهم كما هو الشأن اليوم.

ومما يوجب الدهش أن حق مثول النساء فى مجالس النواب، وهو ما يعده المعاصرون وصولاً إلى أرقى النظم الديموقراطية، ويظنونه من خصوصيات المدنية فى القرن العشرين، كان من وضع النبى ﷺ، إذ أمر أن لا يحرم النساء من شهود المناقشات فى الأمور العامة، فكن يحضرن مع الرجال فيها. ولم يرد عن النبى ﷺ أنه خوّلهن حق الحضور دون الاشتراك فى إبداء الآراء. بدليل أنه لما بدا لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين أن يحدد مهور النساء لما آنس أن

بعضهم يسرف فى تقديرها، أمر بأن يُدعى الناس إلى المسجد لسماع أمر يهم الناس من الأمور العامة.

ولما حضر الناس وفيهم نساء خطبهم عمر فى أمر مغالاة بعض الناس فى تقدير المهور، ورأى أن يقتصر الناس على القدر الذى مهر به رسول الله ﷺ بناته.

فنهضت أمرأة من الحاضرات وقالت: أوحى بعد رسول الله يا عمر؟ فسألها وما ذاك؟ فتلت قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[1].

ففكر أمير المؤمنين قليلاً، ثم قال صدقت ورجع عن رأيه إلى رأيها.

إن هذا التوسع العظيم فى تقرير حقوق المرأة بحيث تصل إلى أبعد شأو وصل إليه فى العصر الراهن، جدير أن يحسب معجزة اجتماعية للإسلام تشهد بمصدره الإلهى؛ فإن القبائل التى كانت تعتبر المرأة غير جديرة بأن ترث زوجها، بل تورث كما تورث الأمتعة، لا يعقل أن تصل فى الاعتراف بحقوقها الطبيعية طفرة إلى ما وصلت إليه الأمم المتمدنة فى القرن العشرين.

فالأمة التى تصل إلى هذه الغاية القصية فى تقدير الحقوق الاجتماعية، وإحكام الروابط الأدبية، لا يستغرب أن تصل إلى مثل ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من زعامة العالم الإنسانى قروناً متوالية، فلننظر فيما كانت عليه، وما آلت إليه تحت ضوء مجرياتها بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ حتى نظفر بكشف بعض الأسرار التى أدت إلى هذا الانقلاب الخطير.

---

(١) النساء: ٢٠.

توفية التعاليم الإسلامية
بحاجات الناس كافة في كل زمان ومكان[1]

بعد أن قلنا فى مقالنا السابق إن التعاليم الإسلامية هى خير التعاليم التى تبنى الأمم وتضمن لها جميع الحوافظ التى تستبقى وجودها، وكل العوامل التى تدفعها للتطور، عدنا فتساءلنا: هل وفّى محمد ﷺ بهذه المهمة؟ وهل ما جاء به يصح أن تأخذ به الأمم كافة فى كل زمان ومكان؟

نقول: أما أنه وفى بها للأمة العربية، فنعم. ألم تر أنها بعد أن كانت على الحالة القبيلية الساذجة، منحلة العرى، مفككة الأوصال، لا وجهة لها ولاغاية فى الحياة، انتقلت فى سنين معدودة إلى أمة موحدة الوجهة والغاية، ذات مُثُل عليا أسمى ما يتطالّ إليه البشر من الكمال، وبلغت من سعة الملك فى مدى ثمانين سنة إلى أبعد مما بلغته دولة الرومان فى ثمانمائة عام، ومن بسطة العلم وجمال المدنية إلى أسمى مما وصلت إليه أمة قبلها حتى اعترفت لها الأمم بالزعامة العالمية.

بقى علينا الإجابة عن الشق الثانى من السؤال المتقدم، وهو: هل ما جاء به النبى ﷺ يصح أن تأخذ به الأمم كافة وفى كل زمان ومكان؟

الجواب: ولم لا؟ ألم يأخذ به الفرس بعد فتح أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب لبلادهم، فانتظمت به أحوالهم، وعزت به جماعتهم، وارتقت علومهم

(١) مجلة الأزهر السنة السابعة عشرة ١٣٦٥ هـ، ص ١٢.

وآدابهم، وقاموا للإسلام بخدم أدبية وعلمية لا تزال الشعوب الإسلامية تذكرها لهم إلى اليوم؟

ودخل فى الإسلام بعدهم أتراك وصينيون وهنديون وسوريون ومصريون وغيرهم، فعاشوا فى بحبوحة هذا الدين فى يسر من أمورهم، ورغد من معيشتهم، وتميزوا عن بقية مواطنيهم ممن لم يلبوا دعوته بسمو آدابهم، وعلو أخلاقهم، حتى صار حالهم بما نقلهم الإسلام إليه من الارتقاء فى شؤونهم، مغرياً لمخالفيهم على الدخول فى الإسلام، فأقبلوا عليه أفواجاً، فإما انتهى الأمر بإسلام الجماعة كله، أو بعدد كبير منهم. وهذا لا يعقل أن يكون فى البلاد التى لاتدين للحكومة الإسلامية إلا إذا آنس الناس مظهراً رائعاً لمتبعى هذا الدين، وتأثيراً عظيماً لتعاليمه على العقول؛ فقد أصبح المسلمون فى الصين يبلغون نحو خمسين مليوناً، وقد وصلوا فى الهند كما دل عليه التعداد الأخير إلى نحو مائة مليون.

وهذا يدل على أن أصول الإسلام تتفق والحاجات الحيوية فى كل بيئة من بيئات الجماعات البشرية.

فإن قيل إذا صح هذا القول على الجماعات ذات الحياة الساذجة، كما كانت عليه الحال فى عهد ظهور الإسلام، فلا يصح فى هذا العهد الراهن، حيث تعقدت شئون الحياة، وتنوعت عوامل الاجتماع، وتداخلت مصالح الأمم، وارتقت المثل العليا للأخلاق، ونشأت دولة العلم فقضت على التقليد، وعلى مبدأ المحافظة على القديم فى كثير من العنف، ودفعت بالعقول إلى مناح من النظر المستقل عن جميع الاعتبارات، وإلى أساليب من التدليل الحسى لم يصل إليها القدامى من المهيمنين على الأصول، وهذه ثورة لا يسيغها أى دين، لأنها وضعت فى الميزان كل ما كان يدين به الناس ويعدونه فوق متناول البحث، فكيف يتغلب دين على كل هذه الانقلابات الأدبية، وتبقى له قيادة النفوس فى مثل هذه الحال؟ هذا ما يشتبه به المعترض على ماقررناه. ونحن نجيبه فنقول:

لعل المعترض علينا يدهش إذا نحن صرحنا له بأن كل هذه التطورات الأدبية التى نقلت العالم من حال إلى حال، وضع أصولها الإسلام، وأقام عليها صرحه الوطيد الأركان، وهى التى أحدث بها آيته الكبرى من الانقلاب الفجائى الذى أوجده فى جزيرة العرب فى سنين معدودة ثم انتقل منها إلى العالم كله، ولا يزال يتابع سيره فيه إلى اليوم.

إن ما يسميه المعترض علينا ثورة، وهو أكبر ثورة أدبية شهدها العالم الإنسانى فى الواقع، كان مظهرها المحسوس قيام الأمة الإسلامية، ونهوضها ذلك النهوض الرائع، وبلوغها إلى مكانة الزعامة العالمية، فى جميع نواحى النشاط الأدبى والمادى فى سرعة شبهها المؤرخان المشهوران أمان وكوتان Amann et coutan فى تاريخهما العام، بسرعة البرق. وليس بيان ذلك إجمالاً بالأمر الصعب.

فأول ما شرطه الإسلام على الداخلين فيه أن يقوموا على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وبينها بأنها الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده، فيتجردوا من كل عقيدة وراثية، وعادة تقليدية، وحالة نفسية، وأن ينظروا فى كل ما يلقى إليهم من التعاليم غير متأثرين بآراء آبائهم الأولين، ولا جامدين على ما وجدوا عليه قادتهم الأعلين، ولكن جارين على أسلوب المفكرين المستقلين، أحراراً من رق التقليد، مطلقين من قيود المجاراة مستشعرين مبدأ العهدة الشخصية (أى المسئولية الشخصية)، معتقدين أن ليس أحد يغنى عن أحد شيئاً، وأن الناس كلهم سواء فى الحقوق، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وأن التفاضل بينهم لا يقوم إلا على نسبة مزاياهم الذاتية من علم وأدب، لا على نسبة ما هم عليه من مال ونسب، وأن حكومتهم يجب أن تكون ديموقراطية دستورية، وقد بينا كل ذلك فيما سبق من الفصول فلانعود إليه، فهذه الأصول التى تخالف ما كان تواضع عليه الناس فى سالف الأزمان، تعتبر أكبر ثورة فى العالم، وقد جاء بها الإسلام كلها، وأقام جماعته عليها، وفتح بلاداً ونشرها فيها، وتعدتها إلى سواها شرقاً غرباً،

ففتحت أعيناً عميا، وأسمعت آذاناً صمّا، وأنارت قلوباً غُلفاً وتخطت هذه الحركة آسيا وبلغت أفريقيا، ومنها اجتازت البحر إلى أوروبا فدخلتها من إسبانيا، وإيطاليا، وقصد بلاد المسلمين رجال من جميع الأجناس، أخذوا عنهم العلم، ووقفوا على أسرار قوتهم بالتمسك بهذه التعاليم، وعادوا إلى بلادهم بعقول أوسع مدى، وبقلوب أكثر قبولاً للتجديد مما كانت عليه.

وفى الآفاق أثرت فتوحات المسلمين، وما أسسوا من حكومات عادلة، وما عاملوا به المقهورين من المساواة والرحمة، فى بقاع واسعة من آسيا وأوروبا، وما نشروا فيها من علوم، وما أوجدوا بها من صنائع، وما أحدثوا من عمران، تأثيراً عظيماً حتى دخل منهم فى الإسلام ملايين كثيرة دون دعوة، ولم يضنوا عليهم بالعلم فتخرج منهم فى كل فرع من فروعه أئمة فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى، فأحدث كل ذلك فى العالم حركة آلت بعد عدة قرون إلى بزوغ عهد النهوض، وقد أسموه بعهد البعث La Renaissance، وما زالوا جارين على متابعة نهضتهم حتى وصلوا إلى ما هم عليه اليوم.

فكيف يتوهم بعد هذا أن الإسلام قد لا يوافق جميع الأمم، خاصة فى كل زمان ومكان وهذه آثاره فى جميع بقاع الأرض؟

فإذا كان هذا شأن الإسلام فى أول أدواره، فكيف لا يكون ملائماً لجميع الأمم، ومفيداً لها فى كل زمان ومكان؟

فمهمة الإسلام والحالة هذه لم تقتصر على البلاد العربية فحسب، ولكن تعدتها كما ترى إلى البلاد الغربية، فصدقت تسميته بالدين العام، وصدق على النبى محمد ﷺ أنه رسول من الله إلى العالمين كافة.

ولما كان الأمر كذلك، وهو صريح فى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

(١) سبأ: ٢٨.

وجرى عليه العمل على عهد النبى ﷺ بإبلاغه بكتب خاصة إلى الحكومات التى كانت معروفة لدى المسلمين فى ذلك العهد، كان من واجب المسلمين بحكم هذا الأصل الاتصال بالناس كافة للقيام بما عهد إليهم من هذا الشأن الاجتماعى الجليل الخطر، البعيد الأثر.

ولما كانت الاتصالات الاجتماعية المؤثرة فى تلك العهود لا تكون إلا بواسطة الحروب، كان لابد من شبوبها بين الأمة الإسلامية الحديثة التكون، وبين جاراتها من الأمم القائمة. ولسنا نقول ذلك تبريراً لما وقع من الحروب الطاحنة بين المسلمين وجيرانهم، ولكن لأن تلك حقيقة علمية مقررة. فقد تبين لعلماء الاجتماع أن التحاك المسلح بين الأمم كان الوسيلة الفعالة فى انتقال عوامل النهوض وبواعث الارتقاء بين الأمم. فكانت الحروب حاجة ضرورية من حاجات العمران. فإذا كان المسلمون الأولون استخدموها فى الاتصال بالأمم، فإنهم، إنما فعلوا ذلك مضطرين بعوامل النشوء والارتقاء الطبيعيين اللذين كانا لا معدى لهما عنهما.

ربما يظن بعض الباحثين أن المسلمين الأولين لو كانوا عمدوا فى سبيل الاتصال بالأمم لتبليغهم الدعوة الإسلامية إلى إرسال الدعاة، وإلى نشر الرسائل إلخ، لأغناهم ذلك عن الزج بأنفسهم فى معمعان ذلك التناحر العام الذى كان سائداً فى تلك الأيام.

ونحن نرى أن هذا الظن غير مؤسس على أى مرجح يبرره. فالجماعات البشرية فى تلك العهود كانت من التعصب الأعمى بحيث لا تصغى إلى الدعاة، ولاتدخل معهم فى جدال فى المسألة الدينية، ألم يقل مشركو العرب كما رواه الكتاب الكريم عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1].

وكان أيسر شىء لدى تلك الجماعات أن تقتل الدعاة وتخلص من مضايقتهم.

---

(١) فصلت: ٢٦.

أما الرسائل فكانت لا تفيد أيضاً لسيادة الأمية إذا ذلك فى الأمم كافة. فلم يبق أمام أصحاب الدعوة غير استخدام الوسيلة المتفق عليها، وهى الدخول مع المدعوين فى حرب. وكان الأسلوب الذى اتخذه المسلمون بعد وفاة النبى ﷺ، أن يعبئوا جيشهم للقتال، ويبعثوا بسفرائهم إلى الأمة المراد تبليغها الدعوة ليعرضوا عليها الأخذ بواحد من ثلاثة أمور، وهى: إما دخولهما فى الإسلام، وفى هذه الحالة يصبحون إخوانا للمسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ وإما أن يدفعوا جزية سنوية للمسلمين؛ وإما أن يحكموا بينهم السيف ليبت فى أمرهم.

بهذا الأسلوب الجديد تطورت الحرب من تناحر فى سبيل الحصول على ما بيد الغير من رزق على وجه مكشوف، إلى جهاد مسلح لنشر دين أصوله كلها ترمى إلى المصلحة العالمية. وهذا الفارق وإن كان لا يغير من حقيقة الحرب إلا أنه يلطف من أغراضها، ويجعلها إنسانية بحتة بعد أن كانت حيوانية محضة.

على هذا الوجه شرع المسلمون الأولون يفتحون الأرض للإسلام، وسيرى قراؤنا أنهم وفوا بجميع ما وعدوا به العالم من المساواة والعدل والرحمة، وأنهم رفعوا شأن كل أمة افتتحوا بلادها درجات عما كان عليه، ولم يرو عنهم أنهم غدروا بأمة، أو جردوها عن أموالها، أو ارتكبوا مع جماعة ما ارتكبته الأمم الفاتحة قبلها من الإذلال والاستعباد والسلب، فكان عهد خلافتها على الأرض عهد ائتلاف ومزاملة وتعاون، وسننوّه بأدلة ذلك فى مواطنها من هذا البحث إن شاء الله.

(النبوة حاجة روحية لا معدى للإنسانية عنها)[1]

لقد ارتكب الماديون شططاً بعيداً بادعائهم قيام الوجود المادى دون قدرة مدبرة له، وبزعمهم أن نواميس الطبيعة تكفى لتعليل كل ما هو عليه من نظام وإحكام، ومن تنوع وإبداع فى الكائنات، حتى الحية منها إلى أن تصل إلى الإنسان.

الشطط فى هذه المزاعم بعيد المدى بحيث يتعذر تصوره، ولولا أن العقل الإنسانى مهما سما فى معارج التكمل، لايزال على حالة توجب الأسف من النقص، لما لقى مثل هذا المذهب من رواج بين ظهرانى أمم بلغت شأواً بعيداً من الثقافة.

ظهرت المادية فى حضانة الفلسفة قبل أكثر من ألفى سنة، ولا سيما فى بلاد اليونان، وقد نقلنا أشهر مذاهبهم فى مواضعها من هذه السيرة وتبين منها القراء أنها بحكايات العجائز أشبه وما زال المذهب المادى يتجرد من حشوه الرث على نسبة تقدم العلم، إلى أن وصل إلى القرون الأخيرة على صورة دعوى مجردة عن الأدلة، أساسها استبعاد أن يكون فى الكون قوة خارجة عنه تدبره من عل؛ محتجاً بأن فيه من آثار التطورات التدريجية، والمحاولات الفاشلة، ومن الشرور والدوافع القوية إليها، ما لا يتفق وافتراض وجود تلك القوة المدبرة.

فلو عرضت لعقلك الكون على ما فيه من عوالم متماسكة ومترابطة؛ومن إبداعات محيرة للعقل فى دقتها وتناسقها، وذهابها فى الجمال والأناقة كل مذهب؛ ومن قيام المواد وما ركب منها على نظام هندسى، استنتج العقل من

(١) مجلة الأزهر السنة السابعة عشرة، سنة ١٣٦٥هـ، ص ٣٣٩.

النظر إليه أسمى قوانينه الرياضية وأصوله الميكانيكية، وما سماه بالنواميس الطبيعية.

ثم لوعرضت لنظرك عالمى النباتات والحيوانات، وما تجلت فيه من الصور الرائعة، وما قامت عليه من التراكيب المعجزة، وما أُلهمت الأحياء الضعيفة والقوية من مقومات حياتها، وما أوتيته على ضعفها من الحيل والوسائل لتحصيل قوتها، وحفظ صغارها.

لو عرضت لعقلك ونظرك كل هذه العوالم والكائنات، لاحتقرت كل من يدعى أنها وجدت من طريق الاتفاق المحض، وأن القوة الطبيعية المجردة من العقل تستطيع أن توجدها على ما هى عليه من تباين فى الصور، وتنوع فى التراكيب، واختلاف فى القوى؛ خاصة إذا تدبرت فى أن جميع الكائنات الحية الضعيفة قد أُلهمت من وسائل حياتها، وذرائع وجودها ما عم جميع أفرادها، وكان سبباً فى حفظ ذواتها وأنواعها أجيالاً لاتحصى، وهو مما لا يمكن حصولها عليه بقواها الذاتية.

أليس فى هذا دليل محسوس على أن الخالق تولاها بالهداية، وبث فى روحها من العلم بالوسائل ما تحفظ به حياتها الفردية والنوعية؟ ولقد حاول أقطاب المادية أن يعللوا هذا الإلهام بأسباب طبيعية، ففشلوا، واعترف دارون نفسه فى كتاب الأنواع بأنها مسألة مستحيلة الحل.

وإذا أراد القارىء أن نستأنس ببعض آراء علماء الكون فى هذا الموضوع، نؤاتيه بما قاله العلامة (ادوار ميلين) المدرس بجامعة السربون، عند ذكره حياة الحشرة اكسيلوكوب:

«إن هذه الحيوانات التى تراها طائرة فى الربيع، تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض مباشرة، فلم ير صغارها أمهاتها ولا تعيش هى لترى أولادها، التى تكون على حالة ديدان لا أرجل لها، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية، ولا الحصول على غذائها، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تبقى مدة من الزمان فى مسكن منفصل وهدوء تام وإلا هلكت.

«فترى الأم متى حان وقت بيضها، تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفره فيها سرداباً طويلاً، فإذا أتمته على ما ينبغى، أخذت فى جلب ذخيرة تكفى صغيرها سنة، وتلك الذخيرة هى طلع الأزهار، وبعض الأوراق السكرية (ومن أدراها بذلك وهى لم ترها ولم تعرف ما يلزمها؟)، فتحشو ذلك الطلع فى قاع السرداب ثم تضع بيضة، وتأتى بنشارة الخشب فتكون منها عجينة تجعلها سقفاً على تلك البيضة. ثم تأتى بذخيرة جديدة فتضعها فوق ذلك السقف. ثم تضع بيضة أخرى وهلم جراً، فتبنى بيتها مكوناً من عدة طبقات، ثم تترك الكل وتموت.

ثم عقب هذا العالم الجليل هذا البيان بقوله:

«يجب أن يدهش الإنسان حين يرى حيال هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالاً يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج الاتفاق (أى الصدفة)، أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة؛ وأثر لتلك الطبيعة التى تكون مادة الخشب ومادة الأحجار، وأن إلهامات النمل مثل أسمى مدركات القوة المدركة الإنسانية، ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية والكيماوية التى بها يحصل تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأجسام. إن هذه الفروض الباطلة بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم المحسوس، قد دحضها العلم الصحيح دحضاً، فإن الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها أبداً. وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة، يسمع بكل جلاء ووضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية».

ألست ترى بعد الاطلاع على هذا التفصيل الدقيق من تاريخ حياة حشرات لم تر أمهاتها صغارها، ولم تر صغارها أمهاتها، أن الوحى الإلهى لها حقيقة تكاد تكون ملموسة؟ وإلا فمن أين لها هذه المعرفة بطبائع أجنتها فى داخل بيضاتها؛ ومن أين لها العلم بحاجاتها إلى كل هذه العناية؟

هذا مثل من عشرات ألوف من حياة الحشرات وغيرها، وهو يشهد بأن الخالق متوليها بالوحى؛ لاستبقاء وجود آحادها وأنواعها، ويشهد فى الوقت نفسه بحاجة العالم الحى إلى تدبير مدبر، وإلا باد بل لم يوجد أصلاً، لاستحالة وجوده معتمداً على نفسه.

أما العالم الإنسانى فقد نشأ مؤمناً بالوحى الإلهى، وأظهر مظهر لذلك أنه نشأ متديناً، فلم تشاهد فى أعمق ما وقعت عليه أعين العلماء الجيولوجيين من آثار العالم الإنسانى بقايا أمة كانت غير متدينة، ولم يوجد على سطح الأرض أمة أو جماعة مهما بلغت من دركات الانحطاط العقلى لا تدين بدين ما، ومن أخص لوازم الدين الاعتقاد باتصال المخلوق بالخالق على نحو ما.

وفى العهد الأخير للإنسانية، وقد أوغل العلم فى التسلط على تعقلها، استبعد كثير من الناظرين أن يكون لله رسل إلى الناس وقد آتاهم عقلاً يميزون به بين الحق والباطل، وغفلوا أن للإنسان حاجة روحية متأصلة فى نفسيته، وهى الاتصال بقيوم الوجود. فإن العالم مهما بلغت فتنته للعقول من الناحية العلمية والصناعية، فإن فيه من النقص وعوامل الفناء والوحشة وعدم الكفاية لإشباع مطامح النفس ومطامع العقل، ما يحول كبار القلوب عنه لتلمس عالم أرفع منه، يجد السمو الروحى الذى يشعر به الإنسان مسرحاً للتمتع فيه بحياة أعلى ووجود أسمى. فليس لهؤلاء المفكرين الممتازين، وعديدهم يزداد كل يوم، إلا أحد موقفين: إما اليأس وتكثير سواد المتشائمين، وإما الرجاء والبحث عن حقيقة الحياة الإنسانية مع الباحثين.

وقد وفق الله الأخيرين إلى نواح البحث فى الشخصية الإنسانية، فاهتدوا إلى حقائق لم يكونوا يحلمون بها، وعوالم لم يكونوا يتخيلون وجودها، أرتهم رأى العين أن ما كانوا يعتبرونه شبهات علمية، ماهى إلا جهالات بالحقائق الكونية.

فإنه فى القرن الثامن عشر، حيث أخذت الشكوك فى الدين بأكظام الباحثين، وتوالت البحوث العلمية لإثبات آلية الطبيعة وتجردها من كل ما يمت

إلى الروح بسبب، أكتشف عالم ألمانى هو الدكتور (مسمر) فى سنة ١٧٧٠ التنويم المغناطيسى، فأثبت بالعمل أن الإنسان ليس بمجرد أداة مادية، ولكنه مستودع لروح تخالف المادة من جميع الوجوه، وتتسلط عليها بعد أن تبطل عمل النواميس الطبيعية عنها، ودلل على وجود عقل باطن للإنسان أرفع من عقله العادى، متصل بعالم روحانى أسمى بما لا يقدر من العالم المادى.

نعم إن هذا الاكتشاف هال العلماء الجامدين، وثاروا عليه جاهدين، وظلوا يجادلونه قرناً كاملاً ولكنه تغلب بحقائقه الثابتة على كل خصومه، وحصل على اعتراف العلم به. فكان هذا الاكتشاف بمثابة كوة فتحها العلم إلى عالم الروح، مكنته من دراسة الشخصية الإنسانية الباطنية دراسة علمية محضة، كانت نتيجتها الإثبات بالدليل المحسوس أن الإنسان الحقيقى ليس محصوراً فى هذا الجسد الحيوانى، ومدى وجوده ليس قاصراً على ما حوله من الكائنات المادية، ولكنه ينطوى على قوة باطنية علوية متصلة اتصالاً مباشراً بالعالم الروحانى على درجات شتى، وأنه يستمد منها كل ما يشعر به فى نفسه من سمو، وكل ما يتوق إليه فى حياته من خلود.

إن هذا الاتصال الروحانى بين النفس البشرية وبين عالم ما وراء الطبيعة، وقد أصبح حقيقة علمية، يقرب إلى عقولنا مهما بلغت من الورع الفلسفى، أن قيّم الوجود يصطفى أرواحاً شديدة الاتصال بذلك العالم، فيوحى إليها ما يريد إبلاغه إلى خلقه مما يجب أن يأخذوا به من التعاليم الأدبية والاجتماعية، لتتألف منهم مجموعة مختارة تحدث من الانقلابات ما تكون الأسرة البشرية فى أشد الحاجة إليه.

وقد حدث ذلك فعلاً فى جميع أقطار العالم، حتى فى العهد الذى كان الناس فيه يجهل بعضهم وجود بعض، تفصلهم بحار مترامية الشواطىء، ومساوف لا يمكن قطعها بما لديهم من الوسائل؛ فوجدت ديانات لا حصر لها أخذ بها أهلها فى حياتهم المادية والأدبية، تختلف فى جزئياتها على قدر

اختلاف عقولهم وبيئاتهم، وتتفق في كلياتها، وهى الاعتقاد بخالق الوجود، وبوجود حياة بعد هذه الحياة يثاب فيها الإنسان أو يعاقب على ما قدم فى حياته الدنيا من خير أو شر.

أليس أكبر مظهر لهذا الأمر الجلل، أن يكون الناس إلى عهدنا هذا يدينون بأديان شتى أتى بكل دين منها رسول خاص، ذو تاريخ معروف وتعاليم محفوظة؟ إن هذا العموم يدل دلالة قاطعة، حتى مع جهل الأمم بعضها لبعض قبل هذا العهد، على أن النبوة كانت حاجة روحية عامة لجميع البشر، وإلا كانت اختلفت الأمم فى طروز تدينها؛ وهذا الاتفاق يوجب على الفلسفة دراسته دراسة جدية، ومحالة وجدان سببه فى النفسية الإنسانية. أما الاكتفاء بالقول بأن هؤلاء الأنبياء كانوا من الذين دفعهم حب التسلط على قلوب الناس إلى أن يدعوا أنهم وسطاء بينهم وبين الخالق، وأنهم يتلقون منه وحياً ليقيهم به على ماينفعهم فى دنياهم، فدعوى ركيكة لا يسيغها عقل ناضج، فإن المتلاعبين بالدين يكونون عادة من سفلة الناس فلا يلبثون أن ينكشف أمرهم وتلفظهم أممهم لفظ النواة.

وليس زعم الكثيرين من علماء الاجتماع اليوم، ومنهم المسيو جوستاف لوبون، أن جميع الأنبياء كانوا مصابين بالجنون، وأنهم بفضل ما كان يتراآى لهم من الخيالات ثبتوا على دعاويهم وأصروا عليها، فتغلبت إرادتهم على إرادات الجماهير، فأشد ركاكة من الشبهة المتقدمة، وقد برهنا على ذلك فى الفصل السابق.

وإذا أضفنا إلى هذا أن العالم العلمى فى شغل متواصل اليوم من دراسة الشخصية الإنسانية واتصالاتها النفسية بالعالم الروحانى، قرب للعقول فهم النبوة، وعُقِل اتصالها من أشرف نواحيها الباطنية بالكائنات العلوية، التى يتنزل عليها من علم الله ما تستطيع أن توصله لتلك الأرواح النبوية.

هذا تحليل علمى له أصل راسخ فى المعلومات العصرية التى أصبح لا يتمارى فيها إلا من يجهل وجودها، ولم يعن بالإلمام بها.

وقد اتفق أن بين يدى الساعة كتاب (إرادة الاعتقاد) للفيلسوف المشهور (وليم جيمس) مدرس البيكولوجيا فى جامعة (هارفارد) بأمريكا، ترجمه إلى العربية حضرة الأستاذ الألمعى الدكتور محمود حب الله مدرس الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين، وتفضل بإهداء نسخة منه إلىَّ، فرأيت أنه يحسن بى أن استشهد به على صحة ما أقوله من أن البحوث الروحانية قد بلغت شأوًا بعيداً من السلطان على عقول العلماء فى هذا العصر، فقد جاء فيه قول الأستاذ وليم جيمس:

«إنى أعتقد أن كل من يفطن إلى مثل هذه المسائل التى يعتز بها الروحيون؛ ويفكرون فيها على نحو علمى، فإنه يكون فى خير مركز يسمح له بخدمة الفلسفة، وإنه لفأل حسن أن نعلم أن كثيراً من العلماء فى مختلف الأقطار يتجهون الآن هذه الوجهة».

ثم أخذ يدحض قول بعضهم إن الجماعات التى تعنى بهذه المسائل من أهل السذاجة فقال: «نظرة واحدة لأعضائها تكفى لدحض هذا الرأى. فالرئيس هو الأستاذ (سيجوك) المعروف بسبب أعماله الأخرى بأنه أكبر ناقد عنيف، وأنه أكثر العقول فى إنجلتره تشككاً. وأحد وكلائها هو النابه البصير أرثر بلفور، ونائبها الثانى هو ذلك البصير أيضا الأستاذ لنجلى. ومن أعضائها العاملين رجال مثل الأستاذ لودج العالم الإنجليزى فى الفلسفة الطبيعية، والأستاذ ريشيه العالم الفرنسى فى علم وظائف الأعضاء. ونجد بين أعضائها كثيراً من العلماء الذين حازوا شهرة عالمية بسبب مقدرتهم العلمية».

وبعد فهذا ختام السيرة المحمدية، فأرجو أن أكون وفيت فيها ببعض ما ينتظر منى، وأحمد الله على توفيقه إياى لبلوغ هذه الغاية، مستمداً منه القوة على المزيد، إنه ولى الصالحين.